دراسات فى تاريخ العصور الوسطى

ـ ٣ ـ

الحجـاج الروس فى مصر

مصر في كتابات الحجاج الروس

في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين

دكتور فايز نجيب اسكندر
أستاذ تاريـخ العصور الوسطى المساعد
كليــة الآداب ـ جامعـــة بنهـــا

دراسات فى تاريخ العصور الوسطى

ـ ٣ ـ

الحجـــاج الروس فى مصر

مصر في كتابات الحجاج الروس

في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين

دكتور/ فايز نجيب اسكندر
أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
كليـــة الآداب ـ جامعـــة بنهـــا

دار الفـكر الجـامعى
شارع ســوتر ـ الأزاريطة
الاسـكندرية

مصر في كتابات الحجاج الروس *

فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين

مقـــــدمة :

تتراءى اوصاف وتقاليد وعادات شعب من الشعوب فى ملحوظات وتعليقات الحجاج والرحالة • فبمجرد عودتهم الى بلادهم ، يخبرون عن الطرق التى سلكوها ، والأحـــداث التى صادفوها • وكان النابهون منهم يدونون مشاهداتهم ، ويعملون على أن ينفعوا غيرهم بتجاربهم ، فيصفون رحلاتهم ، تسجيلا لفضلهم ، وهداية لغيرهم ، ولفتــا لنظــر أولى الأمــر الى مــدى أهمية البلاد التى زاروها •

وكانت العادات والتقاليد على وجه الخصوص ، وأحوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية التى تبدو فى أعين سكان البلاد شـيئا عاديا ومألوفا ، تظهر أحيانا غريبة عندما تصــادفها لأول وهلة أعين الحجاج والرحالة ، فيلتقطونها ويتناولونها فى مصــنفاتهم بسرد أخاذ ينقــل القــارىء الى مكان وزمان الراوى •

---

* ألقى الباحث هذه المحاضرة فى الجمعية المصرية للدراســات التاريخية مساء ١٥ نوفمبر سنة ١٩٨٨م ، وستنشر باذن الله فى المجلة التاريخية المصرية . وأتقدم بالشكر لأستاذ أساتذة تاريخ العصور الوسطى الأستاذ الدكتور سعيد عاشور لتكرمه بتقديمى الى السادة الحاضرين وادارة الندوة . كما أشكر أستاذى الدكتور حسنين ربيع . أستاذ تاريخ العصور الوسطى ووكيل كلية آداب القاهرة على اقتراحه البناء بتغير عنوان البحث من « مصر فى كتابات الرحــالة الروس » الى « مصر فى كتابات الحجــاج الروس » . جــزاه الله كل خير . كما أتقدم بالشكر للاســتاذ الدكتور اسحق عبيد أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة عين شمس لنصائحة العلمية السديدة .

الحــج الى مصــر :

ولقــد حظيت مصر بوصف ممتع كتبــه الحجاج والرحالة الذين أتــوا لزيارة معالمها الدينية • فالحج كان منتشرا منذ بــدء المسيحية • وازداد فى قرونها الاولى • واعتبرت مصر أرضا مقدسة • فقد أجمعت المراجع التى تؤرخ لتاريخ المسيحية فى فجرها الأول على أن ســيناء أرضا مقدســة بمثــابة القــدس ، اذ ازدادت أهميتها بعد أن أصبحت مركزا لحركة الرهبنة • وقــد سبق لهــا أن تمتعت بمنزلة خاصـــة منــذ فجر الانســانية بعد أن ارتبط اسمها بالعبادات القديمة • فعلى أرضها بدأت عبادات القمر والشمس والجبال وآلهة القــوة والخــير والمــوت • وبــدأت عليهــا الخطوات الأولى للانسانية نحو التوحيد • كذلك يرتبط اســم ســـــيناء ارتبــاطا وثيقــا باســم ســــيدنا موسى عليه السلام • فاليها خــرج على رأس قومه العبرانيين هربا من طغيان فرعون مصر • وفوق أرضها ناجى الله وتحدث اليــه • وشهدت مصر أيضا رحلة العائلة المقدســة التى تضم الســيد المســيح عيسى بن مريم عليــه السلام مع والدتــه السيدة مريم العذراء ويوســف النجــار هروبا من بطش هيرودوس •

هكــذا كرم اللــه مصر وباركهــا برحلات الانبيــاء والرســل والقديسيين فى كل مراحل تاريخها • وأكدت خطوات ابراهيم الخليل ويوسف الصديق ويعقوب وموسى وهــارون والمسيح عيسى بن مريم أن الســماء قد اختارت ســيناء ، هــذه البقعة من أرض مصر لتكون قدس الاقــداس بالنســـبة لمصر ، والارض المقدســة بالنسبة لكل الاديان • وقــد شــهد جبل ســيناء بنــاء أشهر كنيســة فى العالم بعــد كنيســة القيــامة ، وهى كنيسة ســانت كاترين • تلك الكنيسة التى يحج اليهــا المسيحيون منــذ القرون الاولى من تاريخ المسيحية الى يومنــا هــذا •

هكـــذا اعتبرت مصر ارضا مقدســـة • وكان أغلب الحجاج الذين يذهبون الى القـــدس ، يضعون مصر فى برنامجهم • وقـــد وصلتنـــا كتابات عديدة من حجاج القـــــرون الوسطى ؛ بعضها يلقى أضواء على عقـــائد هذا العهد وآرائـــه وتقـــاليده • وتعـــد رحلة بوستوميان Postomian — وهو من أهالى ناربون بجنوب فرنســـا — أقدم تلك الوثائق ، اذ تعود الى مستهل القرن الخامس الميلادى [١] •

أسباب اهتمام أباطرة الروس بمصر :

ومما يذكر أنـــه حتى أواخـــر القرن الرابع عشر الميلادى • لـــم يسمع الروس الا القليل عن مصر • الا أنـــه فى ســـنة ١٤٧٢ م ، حدث حادث أدى الى تغيرات جذرية فى السياسة الخارجية الروسية ، كان من بين نتائجـــه زيادة الاهتمام بمصر ، ومحاولة ادخالها فى نفوذها • ذلك الحـــادث هو زواج دوق روسيا ايفان الثالث[٢] (فاسيليفتش)

---

(1) Duchesne, Histoire Ancienne De L'église, Paris, 1952, 5 e, éd., II, pp. 486 — 489 ; Denys Gorce, L'hospitalité et Le Port de Lettrés Dans Le monde chrétien des 4 éme et 5 éme siécles, Paris, 1925, pp. 237 — 238 ; Lagrange, Le Judaisme Avant J. - C., Paris, 1935, pp. 103 — 104 ; Bardy, Les premiers Temps Du Christianisme, Paris, 1940, pp. 94 — 97 .

(٢) تولى ايفان الثالث فاسيليفتش Ivan III Vasilievitch حـــكم بلاد الروس طـــوال الفترة الممتدة من ١٤٦٢م الى ١٥٠٥م • وفى غضون ذلك ، تمكن سنة ١٤٧١م من اخضاع نوفجرود Novgord لسيادته • وفى ســـنة ١٤٨١م أذعنت له ايضـــا قازان Kazan • كذلك نجح العاهل الروسى فى تخليص بلاده من نير الاحتلال التترى ، ووحد كل أطراف روسيا وادخلها فى امبراطوريته • ولم يكتف بذلك ، بل عمل على ادخال الحضارة الى ربوع بلاده ، وتنظيم الادارة المدنية والعسكرية ، واصلاح القوانين ، ووضع الأسس المنظمة لولاية العرش • واتسم عهده بالتفاف العلماء والفنانين الاجانب حوله ، وتشجيعه للعلـــوم والفنـــون والآداب ، لذا استحق عن جدارة واستحقاق لقب « العظيم » وكان ايفان الثالث أول من تلقب بلقب « تزار » Tzar للتفاصيل أنظر : =

(١٤٦٢ — ١٥٠٥ م) Ivan III (Vasilievitch) بصـــــــوفى *
باليولوجس Sophie Paléologue ابنـــة شقيق آخـــر أباطرة
الامبراطورية البيزنطية قسطنطين الحادى عشر [(٣)] (١٤٤٨—١٤٥٣م)
Constantin XI *

والجدير بالذكر أن أباطرة بيزنطة كانوا يعتبرون أنفسهم حماة المسيحية والمسيحيين فى الشرق الاسلامى • الا أنه فى سنة ١٤٥٣م ، سـقطت القسطنطينية — مركز المسيحية الشرقية — فى قبضة الاتراك العثمانيين ، وفقدت أسـرة باليولوجس عرشها [(٤)] • ومع ذلك ، وبعد مضى عقدين من الزمان على هـذا الحـــادث الجارف والفاصل فى تاريخ العصـور الوسطى ، أعيـدت الى الوجـود فكـرة حمـــاية المسيحية والمسيحيين فى الشرق الاســلامى ولكن بأقطــاب جدد ، هم زعمــاء الروس • فقـد تصـــاهر ايفان الثالث مع أسرة باليولوجس — كما سـبق أن ذكرنا — وحمل العاهل الروسى على عاتقـه المهمـة التى كان يحملها من قبـل أباطرة الامبراطورية البيزنطية[(٥)] • واستمر

= Maximilian Shlosberg, History of The USSR, Moscow, 1977, T. I, pp. 87 — 93 ; Bouillet, Dictionnaire d'Histoire et De Géographie, Paris, 1871, p. 941 ; Catherine Durand — Cheynet, Ivan le, Terrible, Paris, 1981, pp. 12 — 13 ; Henri Vallotton, Ivan le Terrible, Paris, 1959, pp. 21 — 22.

(٣) توفى الامبراطور البيزنطى يوحنا الثامن Jean VIII فى ٣١ اكتوبر سنة ١٤٤٨م دون أن يترك ولدا . وانتهى أمر الصراع على العرش بتولية قسطنطين الحادى عشر أكبر أشقاء الامبراطور المتوفى . وكان قسطنطين هذا أميرا علىشه به جزيرة المورة ومعاصرا للســلطان العثمانى محمد الفاتح (١٤٥١ — ١٤٨١م) . وشـاءت الأقدار أن يشـهد مصرع الامبراطورية البيزنطية عـلى يد الاتـراك العثمانيين فى التاسـع والعشرين من مايو سنة ١٤٥٣م . عن تفاصيل ذلك أنظر :
Bréhier, Vie et mort de Byzance, Paris, 1969, pp. 417 sqq.

(٤) عن تفاصيل ذلك أنظر : Bréhier, pp. 425 — 428

(5) Runciman, La chute de Constantinople, Paris, 1965, p. 215 .

تــــزارات (٦) Tzars روســـيا يحملون هـــذا العبء حتى قيـــام الثورة البلشفية سنة ١٩١٧م(٧) .

ومن المعتقد ان هـــذا التقـــارب والمصاهرة اللذين تما بين كبار دوقـــات موسكو وأسرة أباطرة الروم . كان له آثـــاره البالغة فى تحريك اهتمامات الروس ببـــلاد الشرق الاسلامى ، وحثهم على زيارة بيت المقـــدس ومصر . لذا ظهـــرت ولأول مـــرة كتـــابات خلفهـــا الرحـــالة الروس ، تتحـــدث عن زيارة مصر عامـــة وجبل القديســـــة كاترين (٨) وجبل موسى (٩) والمكـــــان المعروف باسم « العليقـــــــة المشتعلة » (١٠) على وجـــه الخصوص .

---

(٦) تزار Tzar او تزار Czar لقب حمله امبراطور روسيا . ويعتقد أن الكلمة مشتقة مـــن لقب « قيصر » César . ويقـــال أن ايفان الثالث كان أول من تلقب به وذلك عقب تخليص بلاده من نير الاحتلال التتارى . الا أن بعض المؤرخين أرجع هذا اللقب الى القرن الثانى عشر الميلادى . ويقال أن الامبراطور الكسيس كومنين (١٠٨١ — ١١١٨م) منح فلاديمير الثانى Vladimir II كبير امراء روسيا لقب « تزار » وذلك سنة ١١١٥م . انظر :
Catherine Durand — Cheynet, p. 86, n. 1; Bouillet, p. 488.

(7) Oleg. Voyageurs Russes, I.F.A.O., 1972, p. V .

(٨) يقع جبل القديسة كاترين فى جنوب سيناء ، ويبلغ ارتفاعه ٢٥٩٧ مترا . انظر جوزيف نسيم يوسف : سيناء كنوزها وآثارها التاريخية فى العصور الوسطى — الاسكندرية ١٩٨٣ — ص ١٢٧ ، سالم اليمانى : سيناء الأرض والحرب والبشر — القاهرة ١٩٧٥ — ص ٤٠ .

(٩) يقع جبل موسى فى جنـــوب سيناء هو ايضا ، ويبلغ ارتفاعه ٢٢٤٢ مترا . انظر جوزيف نســـيم يوسف : سيناء ، ص ١٢٧ ، ســـالم اليمانى : سيناء ، ص ٤١ .

(١٠) « العليقة المشتعلة أو المتوقدة » Buisson Ardent برج يلجأ اليه النســـاك عندما تداهمهم المخـــاطر . ويقـــال ان هيلانة Helena أم الامبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٥ — ٣٣٧م) قد بنته فى القرن الرابع الميلادى . ويقع هذا البرج على مقربة من دير القديسة
=

وتتميز بعض نصوص الحجاج والرحالة الروس الذين قاموا بزيارة الشرق الاسلامي خـــلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين بالاقتضاب . كذلك يلاحظ أن أغلب هؤلاء الرحالة كانــوا من الحجاج المسيحيين . فبعـد زيارتهم للأراضى المقدسـة حيث ولـد

=

كاترين . (أنظر : جوزيف نسيم : دراسات فى تاريخ العصور الوسطى — الاسكندرية ١٩٨٣ — ص ١٢٧ — ١٢٨) . واصل هذه التسمية ظهور الله عز وجل لموسى وسط نبات من الشوك المتوقد والنبات لا يحترق . وقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى سورة طه ، الآيات ٩ — ١٢ : « وهل أتاك حديث موسى . اذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما آتاها نودى يا موسى . انى أنا ربك فاخلع نعليك انك بالوادى المقدس طوى » . انظر أيضا : الطبرى : جامع البيان فى تفسير القرآن — بيروت ١٩٨٠— ج ١٦ ، ص ٧٦ . ووردت الاشارة اليها أيضا فى سورة النمل الآية ٧ « اذ قال موسى لأهله انى آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون » أنظـر أيضـا : الطبـرى : المصـدر السـابق ، ج ١ ، ص ٨٧ . وكذلك فى سورة القصص ، الآيات ٢٩ — ٣٢ : « فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . فلما آتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ان يا موسى انى أنا الله رب العـالمين وان الق عصـاك فلمـا رآهـا تهتز كـأنها جـان ولى مدبرا ولم يعقب ، ياموسى أقبل ولا تخف ، انك من الآمنين . اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم اليك جناحك من الرهب ، فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملئه ، انهم كانوا قوما فاسقين » (انظر أيضـا : ابن كثـير : قصص الانبيـاء — الاسكندرية ١٩٨١ — ص ٣١٠ — ٣١٢) . وفى هذه المنطقة الجبلية التى تكسوها الأشـجار والنباتات ، تتجلى وحدة الدين فى أبهى صورها وأروعها . فعند سفح أحد جبالها . على مقربة من موضع « العليقة المشتعلة » ، يتعانق الهـلال والصليب فى وحدة متينة راسخة ، حيث يوجد دير القديسة كاترين ، والى جانبـه مسجد يرجـع تاريخه الى بداية القـرن الثانى عشر الميـلادى (أوائل القرن السـادس الهجرى) . انظر : جوزيف نسيم يوسـف : دراسات ، ص ١٣٨ وعن تفسير أسباب تكرار قصة موسى فى القرآن الكريم انظر : محمود السيد حسن مصطفى : الاعجاز اللغوى فى القصة القرآنية — الاسكندرية ١٩٨١ ، ص ١٢٦ — ١٢٧ ، محمد ابو زهرة : المعجزة الكبرى القرآن — القاهرة ١٩٧٠ — ص ١٥٩ — ١٦٢ .

وعاش السيد المسيح عليه السلام ، كان معظمهم يعرج على مصر ، اذ كان يجذبه لزيارتها ما ورد عنها من نصوص فى التوراة والانجيل وما بها من كنائس شيدت منذ فجر تاريخ المسيحية وما حظى به دير جبل سيناء من شهرة وأهمية فى تاريخ العالم الدينى منذ أقدم العصور •

والجدير بالذكر أنه توافد على منطقة سيناء وديرها طوال العصر الوسيط العديد من كبار الزوار من الشرق والغرب على السواء وبصفة خاصة اثناء العدوان الصليبى الذى تعرض له الشرق الاسلامى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد (القرنان السادس والسابع من الهجرة) • وكان المحاربون الصليبيون يقومون عادة بزيارة هذه المنطقة المقدسة وديرها وهم فى طريقهم الى الشرق تيمنا وتبركا • ولا تزال آثارهم من رموز وشعارات منقوشة على جدران الدير يمكن للزائر مشاهدتها حتى يومنا هذا • كذلك كان الحجاج المسيحيون من كل بقاع العالم يتوافدون على دير سيناء وهم فى طريقهم الى كنيسة القيامة فى بيت المقدس رغبة فى الحصول على الغفران (١١) • كما سبق أن أوضحنا •

وعلى هذا الأساس ، اهتم الحجاج الروس فى كتاباتهم بوصف الاماكن المسيحية المقدسة فى مصر ، خاصة تلك التى تباركت بمجىء السيدة مريم العذراء والمسيح عليه السلام وسيدنا يوسف • كذلك حظى دير القديسة كاترين (١٢) خاصة والجالية اليونانية

---

(١١) جوزيف نسيم يوسف : سيناء كنوزها وآثارها التاريخية فى العصور الوسطى — بحث فى كتاب دراسات فى تاريخ العصور الوسطى — الاسكندرية ١٩٨٣ — ص ١٣٦ •

(١٢) عاشت القديسة كاترين السكندرية فى فجر المسيحية ، وكانت تدين بالوثنية ، ولكنها تركت عبادة الأوثان واعتنقت المسيحية وأخذت تدعو لها ، فانزعج الوثنيون وضايقوها الى أن انتهى الأمر باستشهادها . فلما أقيم الدير المذكور بأمر الامبراطور جستنيان فى حوالى منتصف القرن =

المقيمة فى مصر [١٣] عامة باهتمامهم البالغ • والجدير بالملاحظة أن قاهرة المعز بمساجدها ومآذنها وقلعتها وغيرها من المعالم الاسلامية البارزة لم تجذب انظار هؤلاء الحجاج الرحالة • ومع ذلك ، فقد أشاروا الى ضخامة مدينة القاهرة [١٤] ورقعتها الشاسعة [١٥] • أما بصدد آثار مصر الفرعونية ، فيبدو أن معظمهم لم يقم بزيارتها • اذ لم ترد أى اشارة عنها فى كتاباتهم •

أحوال مصر فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر :

وقبل الغوص فى تفاصيل الروايات التى أوردها الحجاج الروس عن مصر وذلك فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ، ينبغى الاشارة بايجاز شديد الى أحوال البلاد آنذاك • فقد شهدت مصر تغيرا هاما فى كيانها السياسى والاجتماعى والعسكرى

=

السادس الميلادى ، نقلوا اليه رفاتها ، ومن ثم سمى باسمها ، كان ذلك فى القرن الثامن ، أى بعد وفاة هذه القديسة بمئات السنين . لمزيد من التفاصيل . انظر : جوزيف نسيم يوسف : دراسات فى المخطوطات العربية بدير القديسة كاترين فى سيناء — مقال بمجلة كلية الآدب بجامعة الاسكندرية — العدد ٢٢ — الاسكندرية ١٩٦٩ — ص ٩٥ وحاشية رقم ١ ، وكذلك سيناء كنوزها وآثارها التاريخية ، ص ١٢٧ — ١٢٨ ، حاشية رقم ٢ عبده مباشر : سيناء الموقع والتاريخ — القاهرة ١٩٧٨ — ص ١٥٣ — ١٥٥ .

(١٣) اهتم اباطرة الروس بالجالية اليونانية المقيمة بمصر عامة ، ورهبانها الذين يتبعون طائفة الروم الارثونكس خاصة . فكانوا يرسلون مبالغ طائلة الى البطريرك لسد احتياجات ومصاريف الرهبان . يتضح ذلك جليا من خلال كتابات الرحالة الروس .

(١٤) انظر فى هذا Khitrovo, le Pélerinage du Marchand Basile (1465 — 1466), Genéve, 1889 ; p. 244.

والجدير بالذكر أن بعض الرحالة الروس خلطوا بين القاهرة العاصمة المصرية ، ومصر . فاطلقوا كلمة مصر للدلالة على القاهرة . انظر :

Triphon Korobeinikoff, Péréginaton de Triphon korobeinikoff, St. Pétersbourg, 1888, pp. 33, 34, 45 — 47.

(15) Khitrovo, Récit du Hiéromoine Grégoire du Mt. Sinai (1547), p. 269 .

والاقتصادى ، اذ عاشت عصرين : أواخر عصر سلاطين المماليك ، وأوائل عهد العثمانيين • وعلى هذا ، فان هذه الفترة الزمنية تشكل حلقة هامة فى سلسلة تاريخ مصر ، لكونها مرحلة انتقال بين عصرين مختلفين • فبعد أن نعمت البلاد باقتصاد قوى ومستقر وذلك فى أوائل عهد سلاطين المماليك ، عادت فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الى الشقاء ومعاناة أعراض التدهور العام والانحلال والركود والقحط والوباء ، كل هذا نتيجة ما أصابها من تدهور اقتصادى • تلك سنة الله « فالغلاء والرخاء ما زالا يتعاقبان فى عالم الكون والفساد ، منذ بدأ الله الخليقة فى سائر الاقطار وجميع الاقطار والأمصار »[١٦] على حد قول المقريزى فى مصنفه « اغاثة الأمة بكشف الغمة » •

على أية حال ، منذ أوائل القرن الخامس عشر الميلادى ، تعرضت سلطنة المماليك لأزمات عنيفة هدت كيانها وقوضت بنيانها • فقد بدا فى الافق مظاهر التدهور الاقتصادى[١٧] وواجه سلاطين المماليك هذا الداء الفتاك باستخدام طرق يتحايلون بها للحصول على المال ، منها على سبيل المثال رفع الضرائب ، وتحصيلها

---

(١٦) المقريزى : اغاثة الأمة بكشف الغمة — القاهرة ١٩٥٧ — ص ٧ •

(١٧) عن التفاصيل الدقيقة لمظاهر التدهور الاقتصادى آنذاك أنظر البحث القيم الذى اعده الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور بعنوان « التدهور الاقتصادى فى دولة سلاطين المماليك (٨٧٢ — ٩٢٣هـ / ١٤٦٨ — ١٥١٧م) فى ضوء كتابات ابن اياس » بحث فى كتاب « ابن اياس دراسات وبحوث » — القاهرة ١٩٧٧ — ص ٦٣ — ٨٨ • وقد أعيد طبع البحث فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى — بيروت ١٩٧٧ — ص ٣٥١ — ٣٧٢ •

مقــدما (١٨) .

هذا من ناحيــة ، ومن ناحيــة أخرى تداعى نظــام المماليـــك بعــد أن ازدادت المنازعات التى كانت تقوم بين الاءمراء على السلطة ، فصاحب ذلك اراقــة الدماء وانقسام البــلاد ودمارها(١٩) . وتحول

---

(١٨) تحت أحداث سنة ٨٩٦هـ / ١٤٩٠م ذكر ابن اياس أن السلطان قايتباى اشتدت حاجته الى المال ، ففرض ضريبة شهرين على الاوقاف والأملاك التى بالقاهرة ومصر . ثم عاد فأطال مدة جبايتها خمسة اشــهر أخر . « فضاقت الدنيا بالناس ، وقال بعض الموالة فى هذا المعنى :

غــرمت شـــهرين عن أجــرة مــكانى أمس
وأصــبحت مغموس فى بحر المغارم بخمس
اقســم بربب الخــلايق والقمر والشــمس
ما طقت شـــهرين كيف أقدر أطيــق الخمس

(أنظر بدائع الزهور فى وقائع الدهور — كتاب الشعب ٩٩ — ص ٥٦٤ — ٥٦٥ . انظر أيضا : سعيد عاشور : التدهور الاقتصادى ، ص ٨٥ — ٨٦ ، نظير حسان سعداوى : صور ومظالم من عصر المماليك — القاهرة ١٩٦٦ — ص ١٢٨ ، فاضل عبد اللطيف الخالدى : ابن اياس المصرى ومنهجه فى البحث التاريخى — بحث فى كتاب ابن اياس دراسات وبحوث — ص٣٥ . والملاحظ أن الدكتور الخالدى اســتبدل كلمة « غرمت » بكلمة « عرفت » وكلمة « بربب » بكلمة « وربب » وصحة ذلك ما اثبتناه) . ويذكر ابن اياس أن قايتباى لم يعرف المبالغ الطائلة التى تحصلها فى شىء عاد نفعه على الناس . ففى هذا المعنى يقول : « وياليته صرف هذا المال فى شىء عاد نفعه على الناس ، ولكن صرفه فى غير مستحقه وراح فى البطــال ولــم ينتفع به » . ابن اياس — ص ٥٦٥ .

(١٩) ابو المحاسن : منتخبات من حــوادث الدهور فى مدى الايام والشهور — كاليفورنيا ١٩٣٠ — جـ ١ ، ص ١٩ ، ابن اياس : احداث سنة ٨٩١هـ ، ص ٥٣١ ، ٥٣٦ . أنظر ايضــا : سعيد عاشــور : التدهور الاقتصادى ، ص ٦٧ ، ٧٠ ، نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بــين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى — القاهرة ١٩٧٣ — ص ٣٧٠ — ٣٧١ .

المماليك الجلبان (٢٠) الى أداة للعبث والعدوان على المصريين الآمنيين (٢١) . واستولوا على الممتلكات الخاصة والعامة ووزعوها على شكل اقطاعات على أمراء الجند وكبار رجال الدولة (٢٢) . وكثرت

---

(٢٠) مع افتقار سلطنة المماليك ، دأب السلاطين على شراء المماليك كبارا لأنهم ارخص ثمنا من الصغار . وقد اطلقت على هؤلاء اسم « المماليك الجلبان » . وكان من الصعب تعليمهم آداب السلوك . وكان لهذا الفشل فى تقويم السلوك آثاره الوخيمة على دولة سلاطين المماليك ، اذ تحولوا الى أداة هدم ومعول تخريب . أنظر سعيد عاشور : التدهور الاقتصادى ، ص ٧٠ ، نعيم زكى : طرق التجارة ، ص ٣٧٠ — ٣٧١ .

(٢١) من ذلك على سبيل المثال ما ذكره ابن اياس تحت احداث سنة ٩١٣هـ / ١٥٠٨م « أن المماليك الجلبان وثبوا على السلطان بالقلعة وأظهروا العصيان ، وحصل منهم فى ذلك اليوم غاية الفساد ... فاستمرت هذه الفتنة قائمة ثلاثة أيام والقلعة مائجة » . أنظر بدائع الزهور فى وقائع الدهور — الطبعة الثانية تحقيق محمد مصطفى — القاهرة ١٩٦٠ — ص ١٢٦ . أنظر ايضا : عاشور : التدهور الاقتصادى ، ص ٦٧ و ٧٠ ، نعيم زكى : طرق التجارة ، ص ٣٧١ ، أحمد عبد الرازق : البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك — القاهرة ١٩٧٩ ، ص ١٣٢ .

(٢٢) أدرج ابن اياس ذلك تحت احداث جمادى الآخر سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٨م . وقد نال ابن اياس من تلك الكارثة ما نال غيره من ابناء طبقته . اذ تأزمت أحوال السلطان الغورى لضيق سبل المال اللازم للصرف على مماليكه ، فعمد الى اخراج أولاد الناس من أجناد الحلقة عن اقطاعاتهم ، وقطع الرزق الاحباسية والاوقاف عن أهلها « فأخرج نحوا من ثلثمائة اقطاع وزرقة من غير جنحة ولا سبب ، وصار ينعم بها على المماليك بمكاتبات » . وأطلق لمماليكه العنان ليهاجموا اصحاب تلك الاقطاعات فى بيوتهم « ويأخذون منهم مناشيرهم غصبا عنهم ويبهدلونهم بالضرب » وذهب اقطاع ابن اياس الى أربعة من المماليك بمكاتبات سلطانية . (ابن اياس : تحقيق محمد مصطفى ، جـ ٤ ، ص ١٣٦ ، طبعة كتاب الشعب رقم ١١٣ ، ص ٧٦٩) . غير أن ابن اياس لم يبق بغير اقطاع مدة طويلة ، اذ وقف للسلطان الغورى اوائل سنة ٩١٥هـ / ١٥١٠م بقصة يشكو فيها حاله ، فنصره السلطان على المماليك الذين أخذوا اقطاعه . وهكذا استرد ابن اياس اقطاعه المغتصب . ومدح السلطان الغورى بقصيدة من ٣٥ بيتا من نظمه . أنظر : بدائع الزهور — تحقيق محمد مصطفى — ص ١٧٣ — ١٧٥ ، طبعة كتاب الشعب ص ٧٩٣ — ٧٩٤ . أنظر ايضا : عاشور : التدهور الاقتصادى ، ص

=

ثوراتهم على السلطان بدعوى عـدم الرضا عما يخصصه لهم من نفقة وأموال ، مطالبين بالمزيد[٢٣] . فتحولوا بذلك الى أداة هدم ومعـول تخريب لاقتصـاد البـلاد المتهالك . أما سـلاطين المماليك ، فقـد وقفوا وقفة العاجز[٢٤] . وكثيرا ما تنازع المماليك السلطنة والحكم . ظهر بوضوح بالغ منذ وفاة السلطان الأشرف قايتباى (٨٧٢ — ٩٠١هـ / ١٤٦٨ — ١٤٩٦م) حتى تولى الغورى السلطنة عام ٩٠٦هـ / ١٥٠١م ، اذ تأرجح الحكم بين عدد كبير من السلاطين يحكم كل منهم شهورا وأياما ، مما يـدل دلالة واضحة على مـدى الفوضى وعـدم الاستقرار التى عمت ربـوع مصر آنـذاك [٢٥] . وكان من الطبيعى أن تؤثر هـذه القـلاقل والفوضى والاضطرابات على الحياة الاقتصادية فيهـا .

ولم ترحم الكـوارث الطبيعية مصر آنذاك ، اذ كثيرا ما انخفض منسوب ميـاه النيل [٢٦] ، فانعكس ذلك بالتالى على قلـة الانتـاج .

= ٧٩ — ٨١ ، أحمد عزت عبد الكريم : ابن اياس ، ص ١٤ — ١٥ ، أحمد عبد الرازق : دراسات فى المصادر المملوكية المبكرة — القاهرة ١٩٧٤ — ص ١٦٤ — ١٦٥ ، محمد مصطفى زيادة : المؤرخـون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى — القاهرة ١٩٥٤ — ص ٥١ ، سيدة اسمـاعيل كاشف : مكانة ابن ياس بين مؤرخى مصر فى العصور الوسطى ، ص ٥٤ .

(٢٣) الصيرفى : انباء الهصر — أحداث سنة ٨٧٣هـ — ص ٢١ — ٢٢ ، ابن اياس : ص ٤٤٨ — ٤٥٠ و ص ٥٣٧ — ٥٣٨ . انظر أيضـا : عاشور : التدهور الاقتصادى ، ص ٦٧ .

(٢٤) أنظر على سبيل المثال : الصيرفى : انباء الهصر بأنباء — تحقيق حسن حبشى — أحداث سنة ٨٧٤هـ ، ص ١٣٧ . أنظر ايضا : عاشور : التدهور الاقتصادى ، ص ٦٩ .

(٢٥) الصيرفى : انباء الهصر — أحداث سنة ٨٧٣هـ ص ١٠ . انظر أيضا : عاشور : التدهور الاقتصادى ، ص ٦٦ ، نعيم زكى : طـرق التجـارة الدولية ، ص ٣٧١ .

(٢٦) أنظر على سبيل المثال : الصيرفى : انباء الهصر — أحداث سنة ٨٧٣هـ — ص ١٣ و ١٧ : ابن اياس : كتاب الشـعب ٩٩ — أحداث سنة ٨٩١هـ — ص. ٥٣ . أنظر أيضا عاشور : التدهور الاقتصادى ، ص ٧٤

الزراعى وارتفـاع الاسـعار[٢٧] • وكثيرا مـا تعرضت المحاصيل الزراعية للآفات الفتاكة[٢٨] ، مما أثر تأثيرا بالغا على قلة المعروض منهـا فى الاسـواق • وتبع كل هـذه المصائب انخفاض قيمة العملة نتيجـة التضخم الهائل ، وكثرت عمليات تزييف النقـد[٢٩] • وأهملت الدولة المرافـق العامة[٣٠] ، فتعرضت بالتالى للخراب • أما الفـلاح فلم يأمن على غـده ، فكان عليه ليس فقط مواجهة الاخطار السالفة الذكـر ، بل أيضـا خطر العربـان الذين اعتـادوا الانقضاض عليه ونهب محاصيله ومواشـيه[٣١] • أضف الى ذلك تفشى وبـاء الطاعون

---

(٢٧) على سبيل المثال ما ذكره الصيرفى تحت احداث شهر ربيـع الأول سنة ٨٧٣هـ ان « الاسعار فى نمو وزيادة ، لا سيما الحبوب ... وسائر ما يؤكل غلا وعدم » . أنظر : انباء الهصر ، ص ١٧ ، وكذلك ٢٦ ، ٣٢ . اما ابن اياس فقد ذكر انه فى سنة ٨٩١هـ « تناهى سعر البرسيم .. وسبب ذلك أن حب البرسيم التقاوى كان غاليا ، وكان النيل خسيسا ، والذى طلع من البرسيم أكلت غالبه الدودة ، وكان سعر الغلال مرتفعا فى السنة المذكورة ، حتى غلا سعر الماء » . انظر : بدائع الزهور كتاب الشعب ٩٩ — ص ٥٣٠ — ٥٣١ . وتحت أحداث سنة ٨٩٢هـ عبر ابن اياس أحسن تعبير حين قال انه « اشتد أمر الغلاء ... وصار يموت الكثير من الفقراء على الطرقات من شدة الجوع » . انظر : بدائع الزهور ، ص ٥٣٩ .

(٢٨) اشار الى ذلك ابن اياس فى الحاشية السابقة حين قال ان محصول البرسيم « أكلت غالبه الدودة » .

(٢٩) الصيرفى : انباء الهصر — أحداث سنة ٨٧٧هـ ، ص ٤٨٢ ، ابن اياس : كتاب الشعب ٩٦ — أحداث ٨٧٩هـ ، ص ٤٥٦ . أنظر أيضا : عاشور : التدهور الاقتصادى ، ص ٨٢ ، والمجتمـع المصرى فى عصر سلاطين المماليك — القاهرة ١٩٦٢ — ص ٨٨ .

(٣٠) ابن اياس : احداث سنة ٨٨٣هـ ، ص ٤٨٢ . انظر أيضا : عاشور : التدهور الاقتصادى ، ص ٦٨ .

(٣١) انظر على سبيل المثال : ابن اياس : احداث سنة ٨٧٢هـ — ص٣٩٨ ، أحداث ٨٧٩هـ — ص ٤٥٤ ، أحداث سنة ٩٠٤هـ — ص ٦٣٨ ، الصيرفى : انباء الهصر ، ص ١٥٣ و ٤٣٣ . أنظر : سـعيد عاشور : التدهور الاقتصادى ، ص ٦٨ .

فى موجات متلاحقة (٣٢) . ولم يرحم سلاطين المماليك الشعب المصرى المطحون ، اذ اثقلوا كاهله بالضرائب ، ولجأ الجباة الى اتباع الأساليب القهرية لاستيفائها (٣٣) .

هذا غير الاسباب الداخلية للانهيار الاقتصادى فى اواخر عصر المماليك ، هناك أسباب أخرى تتعلق بعوامل خارجية تضافرت جميعها لهدفين أساسيين : أولهما : القضاء على مصدر ثراء سلطنة المماليك الدعم لقوتها العسكرية ، وهو التجارة فى المياه الشرقية والتحكم فيها بين الشرق والغرب . وثانيهما : القضاء على السلطنة ذاتها . ووقع الهدف الأول على عاتق القطالنة والبرتغاليين . بينما وقع الثانى على عاتق العثمانيين (٣٤) .

فنتيجة ما أصاب المماليك من ضعف ووهن ، أغار الاعداء على

---

(٣٢) مصادر عصر دولة سلطنة المماليك عامرة بأحداث انتشار الطواعين انظر على سبيل المثال : المقريزى : السلوك لمعرفة دولة الملوك تحقيق محمد مصطفى زيادة — ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٧٧٤ — ٧٨٧ ، السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك — بولاق ١٨٩٦ — ص ٨٧ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة — القاهرة ١٩٣٠ — ج ١٠ ، ص ١٩٥ — ٢١٢ ، ومنتخبات من حوادث الدهور ، ج ١ ، ص ٤٧ ، ٧٩ ، ٨٩ ، ج ٣ ، ص ٧٠٥ ، الصيرفى : انباء الهصر ، ص ١٢، ٣١ ، ابن اياس أحداث سنة ٨٧٣هـ ، ص ٤٠٦ — ٤٠٧ ، أحداث ٨٨٨هـ ، ٥١٥ ، أحداث ٩٠٣ ، ص ٦٣٢ . ولشهاب الدين احمد بن حجر العسقلانى — صديق المقريزى — كتاب مخطوط بعنوان « بذل الماعون فى أخبار الطاعون » يفرق فيه بين الوباء والطاعون . انظر ايضا : عاشور التدهور الاقتصادى ، ص ٧٣ — ٧٤ .

(٣٣) ابن اياس : بدائع الزهور — احداث ٨٩٢هـ — ص ٥٤٢ . أنظر ايضا : عاشور : التدهور الاقتصادى ، ص ٨٢ — ٨٤ ، الخالدى : ابن اياس المصرى ومنهجه فى البحث التاريخى ، ص ٣٢ — ٣٣ .

(٣٤) نعيم زكى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها ، ص ٣٧١ — ٣٧٢ .

أطراف البــلاد وسواحلها (٣٥) • فتطلبت هــذه الحروب الاستنزافيــة مبالغ طائلة من خزانــة خاوية ، وبالتالى ازدادت الاوضاع الاقتصادية ســوءا فــوق ســوء •

كذلك كان لكســاد تجارة سلطنة المــاليك الأثــر البالغ فى هلاك اقتصــادها ، اذ تقطعت أوصال معظم طرق التجــارة الداخليــة بين الشرق والغــرب بســبب ظهور التتار (٣٦) ، مما أدى الى غلق الطرق التجارية القــديمة ، من شــرق آســيا ووسطها الى غربيها • الا أن ذلك ســاعد على ازدهار الطريق التجــارى البحــرى من الصــين والهند الى البحــر الاحمر ومصر والشام (٣٧) • لكن لم يلبث أن انهار هــذا الطريق أيضــا أواخــر القرن السادس عشر • وذلك منــــذ نجاح البرتغاليين فى اكتشــاف طريق رأس الرجاء الصالح والدوران حــول افريقيــة والوصول الى الهنــد • فأتى هــذا الاكتشــاف على المــورد الأســاسى لثروة وقــوة سلطنة المماليك (٣٨) ، مما جعــل أحوالها الاقتصادية فى حالة يــرثى لهــا ، وانعكس ذلك بالتالى على أحوال مصر الاجتماعية والثقافية والعسكرية •

---

(٣٥) أشار ابن اياس الى ذلك فى عدة مواضع فتحت أحداث سنة ٨٧٨هـ ذكر أن الافرنج اغاروا على الاسكندرية ودمياط . ففى هذا المعنى قال : « وفيه جاءت الاخبــار من الاسكندرية بأن الافرنج عبثوا ببعض سواحلها ، وأسروا من المسلمين تسعة أنفار ، وفعلوا مثل ذلك بثغر دمياط » انظر : بدائع الزهور ، ص ٤٤٦ .

(٣٦) قام ماركو بولو برحلة شهيرة الى الشرق الأقصى فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، فأشار الى ما ترتب على غزوات التتار من انعدام الامن فى طريق التجارة البرى بين الصين من جهة آسيا الصغرى وموانى البحر الأسود من جهة أخرى . وقد اعتاد اللصوص آنذاك الاعتداء على القوافل والتجارة . أنظر : سعيد عاشــور : العصر المماليكى فى مصر والشــام — القاهرة ١٩٦٥ — ص ٢٨٥ .

(٣٧) نعيم زكى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها ، ص ٣٦٩ .

(٣٨) عاشور : التدهور الاقتصادى ، ص ٧٧ .

هكـذا ، تكاتفت العوامل الداخلية منهـا والخارجية لتأتى على نظـام دولـة سـلطنة المماليك فى مصر والشـام والحجاز ، وتسقط فى نهـاية المطـاف فريسـة سـهلة أمام جحافل الغـزاة العثمانيين وذلك سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م وتتحول مصر الى ولايـة عثمانية ٠

ولم تكن مصرياً حسن حـال فى العهد العثمانى ٠ فقـد اجتاحت الجيوش العثمانية ربـوع البـلاد كالضوارى المفترسـة ٠ فأذاقوا المصريين أشنع الوان السـفك والظلم والمصادرة « وتزايـد منهـم الفساد حتى صاروا يخطفون النساء والصبيان المرد وعمائم الناس من الطرقات والازقـة والأسواق فى النهار والليـل ، وصـار النـاس على رءوسهم طيرة من العثمانية ، يجدون القتلى مرمية فى الطرقات[٣٩] ولولا لطف الله تعالى لفنى أهل مصر قاطبة بالسيف ٠٠٠ وراح الصالح بالطـالح ٠٠٠ [٤٠] » وجمع السـلطان سليم الأول من تراث مصر وثرواتها كل ما وصلت اليـه يـده ٠ وقبض على أكابرها وزعمائها وعلمائها ورجال المهن والفنون فيهـا ، ومهرة الصناع والعمال وأرسلهم الى القسطنطينية ٠ وبذلك جـرد مصر من أكابرها وزعمائها فحطـم عصبيتها ، وقتـل قواها المعنوية ٠ واضعف تراثها الفنى والفـكرى والصـناعى [٤١] ٠

هـكذا اتسم عهـد الاحتلال العثمانى لمصر بالظلام الدامس ، **« ولم يقـاس أهل مصر شـدة مثل هـذه قـط [٤٢] على حـد قول**

---

(٣٩) ابن اياس : احـداث سنة ٩٢٤ هـ — كتاب الشـعب ١٢٥ — ص ١١٢٦ ٠

(٤٠) ابن اياس : احداث سنة ٩٢٣ هـ ، ص ١٠٨٣ ٠

(٤١) للتفاصيل أنظـر محمد عبد الله عنان : ابن ايـاس والفتـح العثمانى لمصر ، ص ١٣٩ — ١٤٨ ، عبد المنعم ماجد : تاريخ سلاطين المماليك — القاهرة ١٩٨٨ — ص ٣٦٢ ٠

(٤٢) ابن اياس : احداث سنة ٩٢٣ هـ — ص ١٠٨٣ ٠

شـــاهد العيان المؤرخ المصرى محمد بن احمد بن اياس [٤٣] •

هذا عن أحوال مصر المتردية اثناء قيام الحجاج والرحالة الروس بزيارتها منــذ مستهل القرن الخامس عشر الميلادى • على أيــة حال ، ســطر الرحــالة الروسى جريثينيوس Gréthénios الصفحة الأولى فى تاريــخ العلاقات المصرية الروســية •

الحجاج الروس فى القرن الخامس عشر :

— رحلة جريثينيوس Gréthénios سنة ١٤٠٠ م :

ويعــد مصنف جريثينيوس Grethénios وعنوانه « حـــج الأرشيمندريت جريثينيوس من دير القديســـة العــذراء مريم » [٤٤]

« Le pélerinage deL'archimandrite Gréthénios du couvent de La Ste Vierge »

أول ســفر وقع تحت أيدينــا لحــاج روسى قامبزيارة مصر • كان ذلك حوالى سنة ١٤٠٠ م • ففى طريقـــــه الى الأراضى المقدســة ، مــر رئيس [٤٥] ديــر القديســة العذراء مريم ، بمصر • وخلف لنــا رواية عن رحــلة حجــه تتسم بالاختصار الشديد • اذ خصص بضــعة أسطر لا تتعــدى أصابع اليــد عن مصر • وقـــد اقتصر سرده على ذكــر

---

(٤٣) شهد ابن اياس حوادث الفتح العثمانى لمصر ، بعد أن اجتاحت الجيوش العثمانية الشاموفلسطين • وكان شاهد عيان لما ارتكبوه فىالقاهرة من اعمال السفك والتقتيل والتخريب والنهب • وحمل فى مصنفه على هؤلاء السفاكين والظلمة وذلك فى عبارات شـديدة مؤثرة • وافاض فى ســرد مظالمهم وجرائمهم • كما أشــاد ببطولة طومان باى • أنظر ابن اياس : أحداث ٩٢٣ — ٩٢٤ هـ ـص ١٠٧٨ — ١١٥٦ •

(44) Khitrovo, Le Pélerinage de L'archimandrite Gréthénios du Couvent de la Ste Vierge (VERS 1400), Genève, 1889, p. 167; Oleg, Voyageurs Russes, I.F.A.O., 1972, p. 1.

(٤٥) يحمـــل جريثينيوس لقب « أرشيمندريت » Archimandrite وهو لقب يطلق على عدد من رؤسـاء الاديرة • أنظر Bouillet, p. 103 .

المدن التى زارها والوقت اللازم للانتقال من مدينة الى أخرى ، فتجاهل بذلك وصف أهم معالم كل مدينة ومظاهر النشاط السكانى فيها . وعلى هذا ورد فى مصنفه أن الطريق : « من أورشليم

الى غزة يستغرق ثلاثة أيام . ومن غزة الى القاهرة اثنى عشر يوما ، ومن القاهرة الى الاسكندرية ستة أيام ، ومن القاهرة الى جبل سيناء خمسة عشر يوما [٤٦] . ومن غزة الى جبل سيناء خمسة عشر يوما . وذكر أن المسيحيين الارثوذكسى يذهبون الى جبل سيناء ، الا أنهم لا يخاطرون بالذهاب الى أماكن أبعد من ذلك بسبب انعدام الطرق » [٤٧] .

وهكذا ، لا يكاد سرد جريثينيوس المقتضب يضيف جديدا الى موضوع كتابات الحجاج الروس عن مصر . اذ اقتصر على ذكر المدةاللازمة للانتقال من موضع الى آخر .

ومع ذلك ، يعد مصنفه أول مصنفات الحجاج الروس التى ورد فيها ذكر مصر . وربما أسهم بفاعلية فى تشجيع غيره لزيارة معالمها المقدسة . وهذا ما حدث بالفعل ، اذ يبدو أنه كان بادرة طيبة لغيره من الحجاج من بنى جنسه للسير على منواله .

---

(٤٦) اختصر الرحالة باسيل بوسيناكوف ثلاثة ايام عندما قام بهذه الرحلة على ظهر جمل . انظر :

Khitrovo, Le pélerinage du marchand Basile Posniakoff aux Lieux Saints de L'Orient, 1558 — 1561, p. 277 ; Oleg, p. 20.

(47) Khitrovo, Le Pélerinage de D'archimandrite Gréthénios du couvent de La Ste Vierge (Vers 1400), p. 167 ; Oleg., p. 1.

ـ رحلة التاجر باسيل في سنتي ١٤٦٥ ـ ١٤٦٦ م :

على أية حال ، لم يكن مصنف جريثينيوس المصنف الأوحد الذى يرجع تاريخه الى القرن الخامس عشر ، بل وصل الينا مصنف ثان أكثر افاضة وأهمية كتبه التاجر الروسى باسيل بعنوان « حج التاجر باسيل » (٤٨) Le Pélerinage du marchand Basile

فقد عزم التاجر الروسى باسيل Basile على زيارة الأراضى المقدسة • فانطلق من بلاده الى بروسة (٤٩) Brousse فى تركيا ، ثم توجه الى بيت المقدس ومنها الى غزة وأخيرا رحل الى القاهرة •كان ذلك فى عامى ١٤٦٥ ـ ١٤٦٦ م •

ولحسن الحظ ، خصص باسيل صفحة من مصنفه سرد فيها ما شاهده فى مصر • واهتم اهتماما بالغا بقرية المطرية التى ارتبط ذكرها بقصة لجوء العائلة المقدسة الى مصر • كذلك جذبت أنظاره ضخامة مدينة القاهرة بكثرة شوارعها وأبوابها وأبراجها ومنازلها وأسواقها • ولم يفته ذكر المدة الزمنية اللازمة للانتقال من موضع الى آخر كعادة رحالة العصور الوسطى سواء أكانوا من المسلمين أم من المسيحيين •

---

(48) Khitrovo, le pélerinage du marchand Basile (1462 — 1466), pp. 244 — 245 ; Oleg, pp. 3 — 4.

(٤٩) تقع بروسة على بعد ٩٥ كم جنوب شرق القسطنطينية وقد ظلت فى ايدى اباطرة بيزنطية الى أن استولى عليها اورخان Orkhan سنة ١٣٢٥ م وجعلها عاصمة له الا ان تيمور لنك قام باحراقها سنة ١٣٧٧م، فأعاد بنائها محمد الثانى . ثم استولى عليها سليمان وقام باحراقها ، وأخيرا أصابها الدمار والخراب بفعل زلزال مدمر . كان ذلك سنة ١٨٥٥ م . أنظر Bouillet, p. 290.

ففى كتابه عن رحلة حجه قال عن مصر :

« ومن هناك (أى من غــزة) يكون الطريق نحو القاهرة عبر الرمال . ويتطلب الأمر أربعة أيام من السير للوصول من غــزة الى قطية [٥٠] Catieh ، حيــــث يوجد بهــا أعداد هائلة من أشجار النخيل ، ويأتى اليها المـــاء من نهر النيــل . ومن قطيـــة الى الخانكة [٥١] مســيرة يومين . والخـــانكة موضع يشـــتهر بازدهاره

---

(٥٠) « قطية » بالفتح ثم السكون ، وياء مفتوحة : قرية قــرب الفرما ، فى الطريق بين مصر والشام ، وهى تعتبر المجاز بينهما . أنظر ياقوت معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ١٤٤ ، البغدادى : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، جـ ٣ ، ص ١١١١ ، المقريزى : البيــان والاعراب ص ٦١ ، حاشية رقم ٩٨ . وتكتب احيانا « قطيــا » وانظر ابن اياس ص ١٠٨٢ ، الصيرفى : ابناء العصر ، ص ٣٦٨ . ويذكر محمد رمزى انها من نواحى الجفار ، أطلالها بين القنطرة والعريش فى الجنــوب الشرقى من محطـــة الرمانة وعلى بعد ١٠ كم منها ، وتقع فى الشـــمال الشرقى من ناحية القنطرة على الســـكة الحديدية الموصلة للعريش بينها وبين القنطرة ٤٥ كم . أنظر : القاموس الجغرافى (البلاد المندرســة) ، ص ٣٥٠ — ٣٥١ ؛ صفاء حافظ : الموانى والثغور المصرية — القاهرة ١٩٧٧ — ص ٢١ ، حاشية رقم ٣٣ . والجدير بالذكر أن الرحالة البلجيكى جوس فان غستل Joos Van Ghistele ذكـــر فى كتابه « رحلة الى مصر فى سنتى ١٤٨٢ — ١٤٨٣ » Voyage en Egypte انـــه زار « واحـــة قطيـــة » L'oasis de Cattia وذكر انهـــا على مسافة أربعـــة أو خمســـة أيـــام من غـــزة ، وحـــدد أن واحـــة قطية هى أول المواضع المسكونة منذ غادر غـــزة . وقال انهـــا قرية صغيرة تبدو من الخارج شـــديدة الفقـــر ، الا انه يقطنها جموع كثيرة من الاثرياء . وتتوافر المواد الغذائية بداخل هـــذه القرية ، كما أنهـــا تقع وسط غابـــة من النخيل. أنظـــر

Joos Van Ghistele, Voyage en Egypte, I.F.A.O., 1976, ch. 3. pp, 10 — 11 .

وقد بـــدأ الباحث تحقيق وترجمة رحلة جوس فان غستل لما لهـــا من أهمية بالغـــة فاقت غيرها من كتب الرحلات .

(٥١) تقع الخانكة على مســـافة تناهز العشرين كيلو متـــر شـــمال شرق القاهرة . انظر

Oleg, Voyageurs Russes, p. 3, n. 3 .

التجارى • وتقع قريـــــة المطرية على يمين الطريق من الخانكة الى القاهرة ، على مسافة خمســـة فرست (٥٢) Verstes (أى ٥٣٣٥ متــرا) قبــل الوصول الى القاهرة ، حيث يجــد المرء شجرة بلسم غير مثمرة • اذ عندما أسدل الليــل أستاره ، التجأت القديسة مريــم العذراء مع ابنهــا وسيدنا يوسف أسفل شجرة البلسم السالفة الذكر ، بعد نجاحهم فى الهروب من القدس الى مصر • ولازالت هــذه الشجرة الى يومنا هــذا (٥٣) — (أى على عهــد التاجر الروسى باسيل) •

وقد شعرت القديسة مريم بظمأ (الكلام للرحالة باســيل) فوضعت وليدها على الرمال ، وتوجهت نحو ضيعـــة صغيرة ، حيث التقت بامــــرأة وقالت لهــا : « اعطنى اشــرب » •

فأجابت الســـيدة :

« ليس لــدى ماء فأنــا ظمأى أنــا أيضا ، ونحن نشرب ماء النيــل » (٥٤) •

فعادت القديسة مريم ثانية الى طفلهــا ، فوجدت عين مــاء أسفل قدميــه ، فأرتوت منــه • ثم اكتشفت

---

(٥٢) « الفرست » Verste من مقاييس الطول الروسية وهو يســاوى ١٠٦٧ م • أنظــر
Oleg, p. 15, n. 1 et Glossaire des mots Russes, p. 345 Dans Oleg.

(٥٣) عن هذه الشجرة أنظر :
M. Jullien, S. J., L'arbre de La Vierge à Matarieh, Le Caire, pp. 105qq .

(54) Oleg, ch. II, p. 3 .

حجرا وسط الرمال ، فقامت بغسل وليـدها ولفافاتـه وهي جالسـة على هـذا الحجر وأرقـدته • وسرعان ما نمت شجيرات في هـذا الموضع ، وانساب من هذه الشجيرات زيـت يشـفي ليس فقط المسـيحيين الذين يستخدمونه ، لكن أيضـا معتنقي الديانات الأخرى • ولازال هـذا الحجر وهذه الشجيرات في موضعها حتى يومنـا هذا [٥٥] •

والطريق من هذا الموضع الى القاهرة يتطلب مسيرة نصف يـوم • على أيـة حال ، لقد وصلنا الى القاهرة قبل اسبوع من عيد الميلاد المجيد في شهر ديسمبر[٥٦]، وذلك يـوم عيد القديس سبستيان [٥٧] St. Sébastien •

وعلى هـذا استغرقت الرحلة من بروسة الى القاهرة مائـة يـوم [٥٨] •

أما عن مدينة القاهرة ،فهي مدينة كبيرة ، مترامية

---

(55) Oleg, chap. II, pp. 3 — 4 .

(٥٦) اى في الثامن من شهر ديسمبر سنة ١٤٦٥ م •

(٥٧) ولـد القديس سبستيان في مدينة ناربون الفرنسية حوالى سنة ٢٥٠ م • وكان قائدا في الجيش الروماني على عهد الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥ م) ، وقد أخفى على الجميع اعتناقه المسيحية حتى يتمكن من خدمـةاتباعـه في العقيدة • وعندما اكتشف أمره ، عوقب بالقتل جلـدا واستشهد سنة ٢٨٨ م • وتحتفل الكنيسة الكاثوليكية في ايامنا هـذه بيوم استشهاده في العشرين من يناير من كل عام • ويعـد القـديس سبستيان شفيع السجناء • أنظـر Bouillet, p. 1733 .

(58) Oleg, chap. II, p. 4 .

الأطراف . بهـــا أربعة عشر الف شارع (٥٩) لكل شارع

---

(٥٩) فى درب Dopp, Le Caire Vu par Les Voyageurs Occidentaux Du Moyen Age, Le Caire, 1953, t. 26, p. 107 .
أربعة الآف شارع ودرب وليس أربعـــة عشر الف شـارع . أنظـــر سعيد عاشور : المجتمع المصري ، ص ٨٤ وكذلك حاشية رقم ٧ . ويؤكد صحة الرقم الذى أورده ونقل عنه الاستاذ الدكتور عاشور ان الرحالة الروسى جريجوار الذى زار القاهرة سنة ١٥٤٧ م ذكر أن فى المدينة أربعة الآف وعشرة شوارع وسيرد ذكر تفاصيل رحلته فى الصفحات التاليـــة . وواضح أن الارقـــام مبالغ فيهـــا ، الا اننـــا نستشف منها مدى سعة المدينة واكتظاظها بالسكان . فقـــد فاقت القاهرة مثيلاتها من المـــدن فى أوربا والعالم الاسلامى . وأطنب الرحالة الاجانب سواء أكانوا مسلمين أو غير مسلمين فى وصف القـــاهرة . وقال الرحالة اليهودى الثرى مشولام بن مناحم Meshullam Ben Manahem الذى زار مصر سنة ١٤٨١ م أن وصف مدينـــة القاهرة يحتـــاج الى اكثر من مجلد ، وأن عدد سكانها يبلغ نصف مجموع ســـكان رومـــا وميلان وبادوا وفلورنســـا وأربع مـــدن أخرى من أعاظم المدن الاوربيـــة . كذلك ذكـــر برنارد دى بريدنباخ انـــه لا يوجـــد مدينة أخرى فى العـــالم كلـــه تضاهى القاهرة فى كثرة سكانها واتساعها وعظمتها وثروتها ، وأن جميع ســـكان ايطاليـــا لا يضاهون فى الكثرة القاهرة وحدها . (أنظر سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ٨٢ — ٨٣) أما الراهب الفرنشسكانى جيهان تنـــو Jehan Thenaud الذى زار مصر سنة ١٥١٢ كمبعوث من قبل الملك الفرنسى لويس الثانى عشر للقـــاء السلطان الغورى ، فقـــد قال ان القاهرة تبلغ ثلاثة أمثال باريس ، اذ ذكر فى هذا المعنى :

« Le Caire Est Trois Fois Aussi Grand Que Paris »

انظـــر :

Jean — Marie Carré, Voyageurs Et écrivains Français en Egypte, Le Caire 1956, t. I, pp. 3 — 4 .

أنظر أيضا سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ٨٢ م .

وقـــد وافقه على ذلك الفارس الفرنسى جريفان افاجار Greffin Affagart الذى قال ان القاهرة مدينـــة عظيمة الاتســـاع ولا يوجـــد مثيل لهـــا ، وانهـــا تبلـــغ أكثر من ثلاثـــة أمثـــال باريس . اذ جـــاء فى هـــذا المعنى بالفرنسية القديمة

« La Grand Et non Pareille cité du Caire .... Bien Troys Foys Plus Grand Que Paris »

انظـــر Carré, pp. 4 — 5 .

أما الرحالة البلجيكى جوس فان غستل الذى زار مصر فى عامى ١٤٨٢ — ١٤٨٣ م ،فقـــد أكد أن القاهرة اكبر مدينة فى العـــالم آنذاك . ففى هذا المعنى يقـــول :

=

بابان وبرجان وحارسان من أعمالهما حراســة الشارع واضاءته ليــلاً باشعال زيت المصابيح (٦٠) وفى بعض هــذه الشوارع ما يقرب من خمسة عشر ألف مسكن ، أما البعض الآخر فيضم ثمانيــة عشر ألفــا (٦١) ولكل

= « La ville du Caire Est Certainement la Plus Grande Ville au Monde Que L'on connaisse » .

انظــــر

Joss Van Ghistele, Voyage En Egypte, 1482 — 1483, I.F.A.O., 1976, ch. 5, p. 16.

(٦٠) كانت شوارع القاهرة تضاء فى الليل بالمصابيح وتغلق أبوابها ، وتشــدد الحراسة عليها ، فيرتب لهــا جماعة من الطوائف لكشف الازقــــة وغلق الدروب وتفقــد اصحاب الارباع وتأديب المخالف ، ومن سار فى الليل لغير ســبب مقبــول قبض عليه . كذلك خصص بعض الأمراء والأجنــــاد للطواف ليلا . انظر سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ٨٤ . وقد لاحظ الرحالة الروسى فاسيلى جريجورو فتش بارسكى الذى زار مصر سنة١٧٢٦م أن شوارع القاهرة تضــــاء بالمصابيح طوال الليل ، وانه خلال هذه الفترة كان الحراس يتفقدون الشوارع والازقــة للقبض على المجرمين واللصوص وأن من يقبض عليــه يتم اعــدامه دون محاكمـــة فى نفس مكـــان ارتكابه الجريمة . كذلك لاحظ بعين الفاحص المدقق ان شوارع القاهرة نظيفة وارجع ذلك الى كنسها ورشـــها بالمياه يوميـــا . ففى هـــذا المعنى ورد فى مصنفه

« Dans Les Rulles sont Allumées Des Lanternes Qui Brûient Toute la nuit. il est coutumier Qu'un Gardien Parcoure les Ruelles à Cause Des malfaiteurs. Si L'on Attrape Quelqu'un....on Lui Coupe La Tête Dans la Ruelle Sans jugement.... »

انظــــر

Barsky, Voyage du piéton Basile Crigorovitch Barski - Plaka - Alba, p. 79 .

(٦١) Oleg, Chap. II, p. 4 . ولا شك أن الارقام مبالغ فيهـــا . ففى رحلة رئيس الرهبان جريجوار ذكر ان كل شارع يضم أربعة آلاف وعشرة مساكن مبنية من الاحجار . انظر حاشية رقم ٦٨ . ويعد الرقم الذى أورده رئيس الرهبان جريجوار أقرب الى الصحة الى حد ما .

شارع سوق كبير يكفى القاطنين به ، ويسد احتياجاتهم اليومية (٦٢) .

وأخيرا ، غادرنا مصر فى السابع عشر من يناير (٦٣) ، وهو يوم الاحتفال بوفاة القديس أبينا وقديسنا انطوان (٦٤) « Antoine »

هذا ما أورده التاجر الروسى باسيل من سرد يتعلق بزيارته لمصر. ويحوى الكثير من الأرقام التى فاقت الخيال والواقع ، خاصة ما يتعلق منها باحصاء شوارع القاهرة ومساكنها . وربما كان هدف باسيل

---

(٦٢) للتفاصيل عن الأسواق آنذاك أنظر : المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٥ ، ١٦٤ . انظر أيضا سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ٨٦ — ٨٨ .

(٦٣) فى السابع عشر من يناير سنة ١٤٦٦ م . انظر
Oleg, Chap. II, p. 4 .

(٦٤) يعتبر القديس انطوانيوس أول شخص فى مصر الوسطى لجأ الى الصحراء من أجل التنسك . ولد فى سنة ٢٥١ ببلدة « قمن العروس » — مركز الواسطى محافظة بنى سويف — من والدين مسيحيين غنيين ، رباه تربية حسنة مع أخته ديوس ، فكان يواظب على قراءة الكتاب المقدس وذات مرة سمع الكاهن وهو يتلو فصل من انجيل متى يقول « ان أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء وتعال اتبعنى فيكون لك كنز فى السماء » (متى ١٩ : ٢١) فاعتبر كأنما هذه الآية موجهة اليه ، فباع ما يملك من الأراضى وتصدق بثمنها على الفقراء ، وانعكف على الصلاة شاغلا نفسه بالصوم والصلاة وقراءة الكتاب المقدس . ثم انشأ نظاما خاصا لتلاميذه ، اذ بنى لكل واحد منهم « قلاية » خاصة ينفرد فيها لعبادة وقضاء حاجياته . وبهذا النظام تكونت اول جماعة للرهبان. للتفاصيل أنظر ابراهيم اسحق فارس : مدخل الى العهد المسيحى الأول . القاهرة ١٩٨٧ — ص ١٢٨ — ١٣٠ ، رءوف حبيب : تاريخ الرهبنة والديرية فى مصر — القاهرة ١٩٧٨ — ص ٣٧ — ٤١ ، منسى القمصى : تاريخ الكنيسة القبطية — القاهرة ١٩٨٢ — ص ٩٨ — ١٠٥ . زكى شنودة : تاريخ الأقباط — القاهرة ١٩٦٨ — ج ١ ، ص ١٩٨ — ٢٠١ . وأيضا
Bouillet, pp. 91 — 92 .

من هـذه المبالغة الواضحة ، ابراز الكثافة السكانية للعاصمة المصرية واظهار مـدى اتساعها •

الحجاج الروس فى القرن السادس عشر :

— رحلة جريجوار رئيس الرهبان سنة ١٥٤٧ م :

على أيـة حال ، مهـدت رحلتا جريثينيوس وباسيل الى مصر فى القـرن الخامس عشر السبيل لقيـام العـديد من الحجـاج الروس لزيارة الاماكن المقدسة بمصر وذلك فى القرن السادس عشر • اذ حفل هـذا القرن بكتابات أربعة حجاج ، اهتم معظمهم فى كتاباته بسيناء وأديرتها والكنائس الأثرية بالقاهرة •

ففى عام ١٥٤٧ م ، عـاد جريجوار رئيس الرهبان الى روسيا بعـد زيارته لجبـل سيناء • وأخـذ يصف ما شاهده فى مدينـة القاهرة للماكير Macaire ، رئيس اسـاقفة عموم روسـيا ، والذى يلى البطريرك فى مرتبتـه الدينية • تـرك لنـا هذا الوصف فى سفر بعنـوان « نص رحلة رئيس الرهبان جريجوار الى جبل سـيناء وذلك سنة ١٥٤٧ » (٦٥)

Récit du hiéromoine Grégoire du Mt. Sinaï (1547).

جاء فى هـذا السـفر أنه :

« فى عام ١٥٤٧ (٦٦) ، فى السابع والعشرين من

---

(65) Khitrovo, Récit du Hiéromoine Grégoire du Mont sinaï (1547), p. 269 ; Oleg, Chap. III, p. 5.

(٦٦) فى الأصل « فى عام ٧٠٥٥ لآدم » هكذا كانوا يؤرخون آنذاك ، اذ كان تاريخ السنين فى روسـيا يبـدأ مع الخليفة ، واستمر ذلك حتى سنة ١٧٠٠ . وعلى هذا ، فالعام الأول الميلادى يقابله عام٥٥٠٨ من الخليقة. وهكـذا عام ٧٠٥٥ يقابله عام ١٥٤٧ ميلادى . انظر Oleg, p. 5, n. 2.

فبراير ، عاد رئيس الرهبان جريجوار من جبل سيناء . وقص على قداسة سيدنا ماكير Macaire رئيس اساقفة عموم روسيا أن فى مدينة القاهرة أربعة آلاف وعشرة شوارع (٦٧) ، ويضم كل شارع أربعة آلاف وعشرة مساكن (٦٨) مبنية من الاحجار . وفى وسط مدينة القاهرة ، نجد الضيعة التى أقام وعاش فيها سيدنا يوسف عليه السلام (٦٩) ، وهى تتساوى فى مساحتها مع موسكو (٧٠) . وفى هذه الصنيعة توجد كنيسة مكرسة للقديس نيقولا الثوماتورج (٧١) Nicolas le Thaumaturge ، حيث يقيم فيها القداس والمراسيم الدينية بطريرك الاسكندرية يواقيم (٧٢) Joachim

---

(٦٧) فى رحلة التاجر باسيل « أربعة عشر الف شارع » أنظر Le Pélerinage du Marchand Basile (1465 — 1466), p. 4 ; Khitrovo, le Marchand Basile, p. 244 .
أنظر أيضا حاشية رقم ٥٩ . علما بأن الرقم الذى أورده باسيل مبالغ فيه .

(٦٨) فى رحلة التاجر باسيل « وفى بعض هذه الشوارع خمسة عشر الف مسكن ، أما البعض الآخر فيضم ثمانية عشر الفا » . أنظر Basile, p. 4. أنظر أيضا حاشية رقم ٦١ . ومن المعتقد أن الارقام التى أوردها رئيس الرهبان جريجوار — أقرب الى المنطق والعقل الى حد ما .

(٦٩) المقصود هنا القلعة . أنظر
Oleg, p. 5, n. 3 .

(٧٠) عن مقارنة القاهرة بغيرها من المدن الاوربية أنظر حاشية رقم ٥٩ .

(٧١) تتبع كنيسة القديس نيقولا طائفة الروم الارثوذكس ، وتقع على مسافة تناهز النصف كيلو متر من القلعة ، فى حى الحمزاوى . Oleg, p. 5, n. 4. ويعتقد أن القديس نيقولا كان اسقفا معاصرا للامبراطور قسطنطين الكبير . ويذكر انه عاش طفولة مثالية وخالية من الرذيلة لذا اتخذ شفيعا للشباب واحتل مكانة رفيعة الشأن فى روسيا فخصصوا له السادس من ديسمبر من كل عام للاحتفال بعيده . ومما يذكر انه توفى سنة ٣٤٢ م . أنظر Bouillet, p. 1347 .

(72) Le Hiéromoine Grégoire, p. 5.

ــ رحلة الراهب سوفرونيوس سنة ١٥٤٧ م :

هذا عن محتوى أول نص لحاج روسى يرجـــع الى القرن السادس عشر ، تــلاه روايـــة ثانية كتبهـــا الراهب سوفرونيوس Sophronius وهو من رهبان ديـــر القديس ســـابا Sabbas ، قدمها أيضا لمـــاكير Macaire رئيس اساقفة عموم روســـيا • كتب سوفرونيوس روايتـــه فى الســـابع من يوليـــو سنة ١٥٤٧ (٧٣) تحت عنوان « رواية الراهب سوفرونيوس من ديـــر القديس ســـابا المبارك وذلك فى سنة ١٥٤٧ م » (٧٤) •

Récit du moine Sophronius du couvent de st Sabbas - le - Béni, 1547

جاء فيهـــا :

« تستغرق المســـافة بـــرا بين القدس وجبل سيناء اثنى عشر يوما • ومن بيت المقدس الى القاهرة اثنى عشر يوما كذلك »(٧٥) •

أما باقى نص الرحلة ، فيتعلق بوصف ديـــر القديس • ســـــــابا فى القـــدس •

ــ رحلة التـــاجر باسيل بوسنياكوف سنة ١٥٥٨ م :

وعلى هذا كانت رواية الراهب سوفرونيوس شـــديدة الايجاز ، ضئيلة الأهميـــة ، علمـــا بـــأن الحولية الثالثة وهى للتاجر باســـــيل بوسنياكوف والتى تعود أيضـــا الى القرن السادس عشر ، شـــديدة

---

(٧٣) فى الاصل سنة ٧٠٥٥ لآدم • من تفسير ذلك انظر رقم ٦٦ •

(74) Khitrovo, Récit du moine Sophronius du Couvent de St. Sabbas - le - Béni, p. 275 ; Oleg, le moine Sophronius, p. 7 .

(75) Khitrovo, p. 275 ; Oleg, p. 7 .

الاسهاب عظيمة الاهمية ، بل بعد أهم وأدق مصنفات الحجاج الروس على الاطلاق التى ترجع الى أواخـــر العصور الوسطى .

اكتشف مخطوط رحـــــلة التـــاجر الروسى باســيل بوسنياكوف Basile Posniakoff وعنوانه « حج التاجر باسيل بوسنياكوف » [٧٦] le Pélerinage du marchand Basile Posniakoff ســـنة ١٨٨٤ م [٧٧] ، فأفقـــد رحلة تريفون كوربئينيكوف Triphon Korobeinikoff شهرتها وأهميتها التى حظيت بهـــا خلال أكثر من قرنين من الزمان قبـــل اكتشـــاف مخطوط بوسنياكوف . اذ اتضح أن تريفون نقـــل مـــادة رحلته نـــقلا حرفيا عن بوسنياكوف .

ومما يذكـــر أنـــه فى عام ١٥٥٨ م ، كلف كل من التزار Tzar ايفـــان فاسيليفتش [٧٨] Ivan Vasiliévitch الشهير بايفان الرهيب Ivan le terrible ، رئيس الأساقفة ماكير Macaire ، والمطـــران

---

(76) Khitrovo, le Pélerinage du marchand Basile Posniakoff Aux Lieux Saints de L'Orient, 1558 - 1561, pp. 285 sqq ; Oleg, Basile Posniakoff 1558, pp. 9 sqq .

(77) Oleg, p. 30 .

(٧٨) اعتلى ايفـــان فاسيليفتش العرش فى سن الرابعة وذلك سنة ١٥٣٣م فخضعت روسيا لوصاية والدته التى خاضت حربا ضارية ضد كبـــار رجال الدولة . ومنذ عام ١٥٤٤م ، تولى ايفـــان الرابـــع مقاليد الأمور ، فأحرز انتصارات متلاحقة على التتار والبولونيين والسويديين . الا انـــه ارتكب أعمالا اتسمت بالوحشية ضد شعوب البلاد المقهورة بل وضد إتباعـــه أيضا . ووصلت بـــه الوحشية أقصاها حين قتل بيديـــه ابنـــه الإكبر فلقبـــه الشعب منذئذ بلقب ايفـــان الرهيب . ومع ذلك ، فقد شهدت روســـيا فى عصره ازدهارا اقتصاديا وحضاريا ملموسا . وقـــد مارس ايفـــان حكما اوتوقراطيا مطلقـــــا الى أن توفى سنة ١٥٨٤ م . انظـــر Catherine Durand - Cheyney, Ivan le Terrible, pp. 12 sqq ; Vallotton, ivan le Terrible, pp. 21 sqq ; Bouillet, p. 941 .

بيمن مطران نوفجورود [٧٩] Pimène de Novgorod والتاجر باسيل بوسنياكوف Basile Posniakoff ورئيـس شـماسـة نوفجـورود جويننـاد دى نوفجورود Guénnade de Novgorod وكبير أشراف بسـكوف [٨٠] Pskov المدعـو كـوم سلطانوف Come Saltanoff بالرحيل الى الشرق • وحمل الحجاج الثلاثة معهم رسالة من ايفـان الرهيب الى يواقيـم Joachin بطريرك الاسكندرية •

وفى الطريق الى القسطنطينية ، توفى جويننـاد ، فواصل بوسنياكوف وسلطانوف رحلتهما وقاما بزيارة الأراضى المقدسة ، ثم توجها الى مصر حيث سلما البطريرك رسـالة الامبراطور الروسى [٨١] •

وفى سرد مشاهد رحلته ، زودنا بوسنياكوف بنص الرسالة • اذ بدأها ايفان بتحية البطريرك وأخبره أنـه تلقى رسـالته التى أرسلها اليـه مع رهبان جبل سيناء • وطلب من البطريرك أن يدعو لـه فى صلواته • وأخبره أنـه أرسل مع جويننـاد كبير شمامسة كنيسـة القديسة صوفيـا St. Sophie والتاجر باسيل بوسنياكوف ألف قطعـة ذهبية وفـراء زبلين مغطى بالقطيفة • أخبره ايضـا فى رسالته أنـه

---

(٧٩) نوفجورود اى « المدينة الجديدة » تقع على بعد ١٩٣ كم جنوب شرق سان بطرسبرج . كانت اسقفية يونانية أى تابعـة لطائفة الـروم الارثوذكس . وتعد من اقـدم مدن روسـيا ، اذ اسسـها السلاف فى القرن الخامس الميلادى . وقد شـهدت نوفجورود ازدهارا تجاريا وازدحاما سكانيا . وبعد حربين ضاريين — وذلك فى سنتى ١٤٧١ و ١٤٧٧ م تمكن دوق روسـيا ايفـان الثالث من اخضاعها نهائيا لسيادته . للتفاصيل انظر
Bouillet, p. 1363 .

(٨٠) بسكوف Pskov او بلسكوف Pleskov مدينة فى روسيا الاوربية . وكانت بها اسقفية يونانية ومحكمة مدنية وجنائية ومدرسـة لاهوتية . بنيت هذه المدينة فى القرن العاشر الميلادى وانتشرت فى ربوعها الكنائس وخضعت لفازيلى الرابع (١٥٠٣ — ١٥٢٣م) سنة ١٥٠٩ . وشـهدت المدينـة ازدهارا تجاريا حتى انها نافست نوفجورود . للتفاصيل أنظر .
Bouillet, p. 1557 .

(81) Oleg, p. 9 ; Khitrovo, pp. 285 — 186 .

أرسل الى رهبان جبل سيناء مبلغ ألف قطعة ذهبية أخرى لمواجهة منطلبات الدير من مصاريف (٨٢) •

والخطاب صادر عن القصر الامبراطورى فى العاصمة موسكو وذلك سنة ١٥٥٩ (٨٣) من شهر سبتمبر •

وبمجرد وصوله الى الاسكندرية ، توجه بوسنياكوف الى البطريرك لتحيته ، وسلمه الرسالة سالفة الذكر • فأخذ البطريرك يسأله عن أحوال الامبراطور ايفان ومسيحيى روسيا وكبار اساقفتها وأقطابها (٨٤) • والذى يجذب انتباه الباحث سؤال البطريرك عن أحوال اليهود فى روسيا • فأجابه باسيل أن الامبراطور ايفان حرم الاتجار مع اليهود ومنعهم من دخول أراضيه ففرح البطريرك بعملية طرد اليهود البغاة وشبه ذلك بطرد الذئاب من قطيع المسيح • وأخبر البطريرك التاجر باسيل أن المسيحيين فى مصر يعانون الأمرين من أذى ومضايقات هؤلاء اليهود لهم (٨٥) • كذلك سأله البطريرك ما اذا كان فى روسيا هراطقة من الاقباط والأرمن وغيرهم من الهراطقة ، ويقصد بذلك اتباع مذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح ، الذين رفضوا مقررات مجمع

---

(82) Basile Posniakoff, pp. 10 — 11 .

وفراء الزيلين ، هو فراء من حيوان مفترس من السموريات يكثر فى سيبيريا •

(٨٣) فى الاصل سنة ٧٠٦٧ لآدم ويقابلها سنة ١٥٥٩ م • وبخصوص التقويم الروسى المعمول به آنذاك وكيفية تحويل سنواته الى السنة الميلادية المعمول بها فى أيامنا هذه أنظر حاشية رقم ٦٦ •

(84) Basile, p. 11 .

(85) Basile, p. 13 .

خلقدونية سنة ٤٥١م • فأجابه باسيل بأنـــه لا كيان لهؤلاء الهراطقة فى روســـيا (٨٦) •

على أيـــة حال ، نستخلص من هـــذا الحديث استمرار التعصب المذهبى الأعمى الذى ورثه الروس عن البيزنطيين بعد اســـدال الستار على امبراطوريتهم الشامخة هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أظهر هذا الحوار العداء المستحكم بين اليهود والمسيحيين فى مصر آنـــذاك • ونســـتدل على ذلك أيضـــا بقصة أوردها باسيل تحت عنوان « روايـــة البطريرك يواقيم بطريرك الاسكندرية(٨٧)» « Récit du Pape et Patriarche Joachim d'alexandrie » جاء فيها أنه فى عهد أحد سلاطين المماليك الجراكســـة ويقصـــد طومان باى آخـــر ســـلاطين المماليك (٨٨) ــ عانى المسيحيون الأمرين على يديه لتفضيل اليهود عليهم • وكان من بين المقربين اليه أحد الأطباء اليهود • ويذكر البطريرك أن هذا الطبيب اليهودى تميز بالمكر والدهاء • اذ خطر على باله افنـــاء كل مسيحيى مصر • تحقيقا لهدفـــه هـــذا ، مثل امام الســـلطان المملوكى طومان باى (٩٢٢ ــ ٩٢٣ هـ/١٥١٦ ــ ١٥١٧ م) وقال لـــه •

« يا جلالة السلطان ، فى سلطنتك مصر جموع من المسيحيين ، لا يستحقون الحياة على اراضيك لبطـــلان عقيـــدتهم • اجبرهم اما على اعتنـــاق الاسلام أو اليهودية » •

فأجابـــه الســـلطان :

« من السهل اجبارهم على اعتناق الاسلام ، لولا بطريركهم العجوز الذى أخشـــاه » •

---

(86) Basile, p. 13 .
(87) Basile, pp. 13 — 17 .
(88) Basile, p. 13 , n. 1 .

فــرد عليــه اليهودى :

« لا تخشى هــذا العجوز يا جــلالة الســلطان ،
سأعد لــه ســما زعافا ، سيتناول منــه نصف ملعقة ،
وبعدها سوف لا يحيا اكثر من ساعة » •

فأجابــه الســلطان :

« اذا أتيت عليــه ، فســأجبر المســيحين عــلى
اعتناق الاسلام ، وسأقتل من يمتنع عن اعتناقه » •

وأصدر السلطان أوامره باحضار البطريرك ، فمثل أمامه •

فقال الطبيب اليهودى للبطريرك :

« يا شيخ ، تخلى عن عقيدتك واعتنق اما الاسلام
واما اليهودية عقيدتى الحقة ، فعقيدتك ليست الا عقيدة
باطــلة » •

فأجابــه البطريرك :

« ســوف لا نتخــلى عن عقيدتنــا الارثوذكسية
الصحيحــة • وســوف لا نعتنــق لا الاســـلام ولا
اليهودية » [٨٩] •

فقال لــه اليهودى فى الانجيل :

« يحملون حيات وان شربوا شيئا مميتا لا يضيرهم
ويضعون أيديهم على المرضى فيبرأون » [٩٠] •

اذن « أيمكنك أن تشرب ســـما مميتا حتى تثبت
صدق ما جاء فى عقيدتك ؟ » •

---

(89) Basile, pp. 13 — 14 .

(٩٠) مرقس ١٦ : ١٨ •

فأجابـــه البطريرك :

« أنا مستعد للموت فى سبيل المسيح وعقيـــدتى المسيحية الارثوذكســـية » •

فأخذ الطبيب اليهودى فى اعداد الســـم • اما البطريرك ، فقـــد التف حوله مسيحيو مصر وانهمكوا فى الصلاة ليـــل نهار وصـــام البطريرك اسبوعا بكامله ولم ينم الا قليـــلا •

وفى يوم احـــد وهو الموعد المحدد ، أى بعد مضى اسبوع على لقـــاء الطبيب اليهودى ، توجـــه البطريرك الى البلاط السلطانى الذى يبعـــد مسافة ثلاثة فرست (٩١) Verstes (الفرست = ٠٦٧ر١ كم) تقريبا من كنيسة نيقولا الثوماتورج العظيم (٩٢) Nicolas Le Thaumaturge وســـار فى ركابه أتراك وعرب ولاتين واقبـــاط وموارنة وأريوسيون ونساطرة ويعاقبة وأناس من مختلف الديانات (٩٣) •

فأعطاه اليهودى كأســـا مليئـــا بســـم فتـــاك قائلا لـــه •

« خـــذ هـــذا الكأس واشرب ما بـــه ! اذا كانت عقيدتك حقة ، ستسلم من أى أذى ، أما اذا كانت خلافه ذلك ، ستتجرع كأس المـــوت ! » •

فشرب البطريرك الكأس عن آخره دون ان يصـــيبه أذى • ثم قال للســـلطان :

« أريـــد بعضـــا من المـــاء » •

---

(٩١) عن الفرست • انظر حاشية رقم ٥٢ •

(٩٢) عنها انظر حاشية رقم ٧١ •

(93) Basile Posniakoff, pp. 14 — 16 .

فأتــوا اليــه بقليل من المــاء ، فصـبه فى الكأس وقدمــه الى اليهودى ليشربه ، فرفض • فطلب من السلطان أن يكون قاضـيا عادلا • ويأمــر اليهودى بشــرب المــاء وليس السم • فأصـــدر السـلطان أوامــره بذلك • فشرب اليهودى فتوفى بعد مضى نصــف ساعة • ومنــذ ذلك الحين عامل السلطان المسيحيين بالحسنى • أمــا البطريرك ، فقــد احتل كرسى البطريركية لمــدة سـتة عشر عامــا بعد تنــاوله هــذا السم الفتــاك » [٩٤]

على ايــة حال ، نستشف من هــذه القصة الطريفة المختلقــة والتى لم يــرد ذكر لها فى كافــة المصــادر الاســلامية المعــاصرة العداء الضارى بين اليهود المسيحيين فى مصر ، ومحاولة اليهود التقرب من الســلطان المملوكى للنيــل من المسيحيين والقضاء على عقيدتهم • الا أن محاولاتهم ذهبت ســدى • اذ تحــول السلطان طوماى باى عنهم لصـــالح المسيحيين •

بعد ذلك ، تطرق البطريرك الى الاحداث الخطيرة التى تعرضت لها مصر نتيجــة اســدال الســتار على حــكم سلطنة المماليك الجراكســة وما اعقب ذلك من احتــلال عثمــانى لربوع البــلاد • اذ أورد فى هــذا الصدد :

« سار السلطان العثمانى سليم [٩٥] من القسطنطينية الى القاهرة ، كان ذلك سنة ٧٠٢٢ لآدم [٩٦] (أى سنة

(94) Basile Posniakoff, pp. 16 — 17 .

(٩٥) فى الاصل سليمان وصحة ذلك السلطان سليم الأول العثمانى ، اذ تمكن من اسقاط سلطنة المماليك عقب موقعة مرج دابق سنة ١٥١٦ م ثم موقعة اليدانية سنة ١٥١٧م •

(٩٦) ٧٠٢٢ لآدم ويقابلها سنة ١٥١٤م وصحة ذلك ٧٠٢٥ لآدم أى سنة ١٥١٧ م • انظر حاشية رقم ٩٥ •

١٥١٤ م وصحتها سنة ١٥١٧ م) ، فاستولى على هذه المدينة ، والقى القبض على السلطان طومان باى وقام السلطان العثمانى باعـــدام السلطان المملوكى وهو فى ملابس السلطنة كان ذلك فى اطراف الميدان الكبير على الابواب الحديدية » (٩٧) •

ويذكر باسيل ان البطريرك شغل كرسى البطريركية منذ خمسة وثمانين عاما • اذ تم تنصيبه فى دير سيناء ، وامضى فيه اثنى عشر عاما ، وتولى اقامة القداس فى القدس خلال ثلاثة سنوات (٩٨) •

ثم تحدث البطريرك عن كنيسة القديس نيقولا St. Nicolas الكائنة فى القاهرة(٩٩) ، فأورد قصة طريفة ومختلقة هى أيضا مفادها أن السلطان طومان باى أمر بالاستيلاء عليها وتحويلها الى حمام • فأصيب البطريرك بحزن بالغ وأخذ فى الصلاة مع المسيحيين فى كنيسة القديس نيقولا • ويذكر البطريرك ان القديس نيقولا ظهر للسلطان فى نفس الليلة وأمره باعادة كنيسته الى البطريرك • فنفذ السلطان مطلبه ولازالت الكنيسة تقام فيها الشعائر الدينية لحظة رحلة التاجر الروسى باسيل ورفيقه سلطانوف (١٠٠) •

ويواصل باسيل بوسنياكوف سرد أخبار رحلته الى مصر فيقول :
« وفى اليوم التالى أمرنا البطريرك بالذهاب معه لزيارة القاهرة القديمة (١٠١) التى تبعد مسافة ثلاثة

---

(97) Basile Posniakoff, p. 17 et n. 1 .

(98) Basile Posniakoff, p. 17 .

(٩٩) عنها انظر حاشية رقم ٧١ •

(100) Basile Posniakoff, p. 18 .

(١٠١) أى الفسطاط • أنظر
Joos Van Ghistele, Voyage en Egypte, p. 18, n. 32 .
ولمزيد من التفاصيل عن أهميتها آنذاك أنظر
Joos Van Ghistele, ch. 14, pp. 46 — 50 .

فرست (١٠٢) Verstes ، حيث زرنا كنيسة اغريقيـة كبيرة للقديس الشهيد مار جرجس St. Georges مقـامة فى ديـر للراهبات (١٠٣) ، وكنيسـة أخرى مخصصـة للقديسـة مريم (١٠٤) . وكنائس مسيحية كانت موجودة

---

(١٠٢) أى ١٠٢١٫٣ كم .

(١٠٣) فى سنة ١٦٥٢ م ، أى بعد ما ينـاهز القرن ، زار الرحالة الفرنسى تيفينو Thévenot هـذه الكنيسة والدير الملحق بها ، وزودنـا بوصف مسهب لهما . أنظـر :

Thévenot, Voyages Tant En Europe qu'en Asie et en Afrique Amsterdam, 1727, 2 vol., II, p. 438 ; J. - M. Carré, Voyageurs Et écrivains Français En Egypte, I.F.A.O., 1956, T. I, p. 26 .

وكانت كنيسة سـان جورج الاغريقية تقوم على قمـة برج مسـتدير محـلاة بالقرميد السوررى والمصابيح المصنوعة من الفضة . وكان البرج الرومانى أكثر امتاعا من الكنيسـة المقامة عليه ، وذلك للبئر الذى فى الوسط والدرجات الكثيرة ، والحجرات الغربية التلألئة . أنظر : لينبول : سيرة القاهرة — ترجمة حسن ابراهيم حسن — القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٦٧ .

(١٠٤) يسميها الرحالة البلجيكى جوس فان غستل Notre - Dame de La Colonne أى « كنيسة العذراء المعلقـة » أنظـر Voyage en Egypte, ch. 14, p. 50, et n. 105 . والكنيسـة المعلقة بين برجين رومانيين مرتفعين فوق باب الطراز القديم منقوش عليه نسر . وهذه الكنيسة جديرة بالملاحظة وتثـير الانتباه لعـدة أسـباب ، لأنهـا أقـدم كنـائس مصر القديمـة على الاطلاق ، ولانها خالية تماما من القباب . ولهـذه الكنيسة مزايـا أخرى ، فليس لها هيكل كغيرها من الكنائس ، بل هنالك منصة مرتفعـة أمام السقف المنخفض فى الجهة الشرقية . وهذه المنصة تؤدى الغرض الذى يؤديـه الهيكل ، على حين نرى السقف مضاعفا فى الجانب الشمالى، والحاجز المنقوش فى الجانب الشمالى مرصع بالزخارف المصنوعـة من العـاج الرقيق مما يزيـد فى بهجـة المكـان وجماله حينما كانت تضـاء المصابيح المعلقـة خلفـه . أما المنبر ، فقـد نقش نقشا بديعـا رائعا . وهو مقـام على خمسة عشر عمودا دقيقـا صنعت على الطراز الاسلامى، مقسمة الى سبعة أزواج . أقيم أحدها فى المقـدمة . أنظر : سيرة القاهرة، ص ٦٧ — ٦٨ .

منذ زمن بعيد(١٠٥) مثل كنيسة القديس سرجيوس المعروفة « بأبى سرجــة » (١٠٦) Serge وكنيســة الشــهيد بككوس Bacchus وكنيسة صعود العذراء وكنيســة القديسة بربارة Barbe وأخيرا كنيسة شـــهداء السيد المسيح(١٠٧) التى تتبع حاليا البطريركية الاقباط(١٠٨) »

---

(١٠٥) ذكر جوس فان غستل أن الكنائس الفخمة فى القاهرة ومصر القديمة بلغت ٢٥ كنيسة . أنظر

Voyage en Egypte de Joss Van Ghistele 1482 — 1483, p. 48 .

(١٠٦) الى جانب الكنيسة المعلقة وكنيسة القديسة بربارة ، لا تزال كنيســة ثالثة جديرة بالذكر لا تقل عن هاتين الكنيستين روعــة وبهــاء . وهذه هى « كنيسة القديس سرجوس » أو « أبى سرجــة » ، وهى التى يتردد عليها الناس اكثر من غيرها ، لأنه قد أثر أن العائلة المقدسة استراحت فى ناووسها حينما أتت الى مصر . ومن المؤكــد أن هــذا الناووس أقدم من الكنيسة التى تعلوه بقرون كثيرة ، اذ يرجع تاريخها الى القرن العاشر الميلادى . والكنيســة نفسها تتميز بستارة بديعــة الصنع ، وعلى مقربــة منها مثل واضح للنقوش القبطية القديمة التى تمثل ولادة المسيح والقديسين المحاربين وقد بدت صورهم بارزة . وثمة مثل آخــر لهذه الصور المحفورة نــراه فى كنيسة القديســـة بربارة . أنظر : سيرة القاهرة ، ص ٦٧ . أنظر أيضــا Vorage En Egypte, p. 49. وذكر جوس فان غستل أن هــذه الكنيسة كانت تسمى آنذاك « La Cana Babylonis » أى « كهف بابيلون » كذلك أطلق عليها اسم « Sainte Marie - de - la Cave » ، أنظر Voyage en Egypte, p. 49 Et n. 102, وخصص الفصل الخامس عشر من مصنفه للحديث عن معجزة حدثت فى هذه الكنيسة نستشف من خلالها العداء الذى وصل اقصاه بين المسيحيين واليهود ومحاولة اثبات انتصار المسيحيين على اليهود فى نهاية الامر . والقصة تختلف عن القصة التى سردها باســيل بوسنياكوف نقلا عن البطريرك يواقيم . انظــر

Joss Van Ghistele, ch. 15, pp. 51 — 53 .

(١٠٧) أمدنا الفريد بتلر لأول مرة ببحث مبنى على داسة علمية دقيقة عن الآثار القديمة للكنائس القبطية فى مصر . انظر

A. J. Butler's, Ancient Coptic Churches of Egypt, t. I, pp. 65 - 86.

(١٠٨) يرجع ذلك الى الخلاف المذهبى بين كنيسة اقباط مصر وكنيسة الروم الارثوذكس التى يتبعها الروس .

على حد قول بوسنياكوف[١٠٩] .

ثم يعود التاجر الروسى باسيل ثانية الى وصف القاهرة القديمة فيقــول انهــا حاليــا كالصــحراء . لا يسكنها الا بعض المصريين المسنين والمتشردين . أما الاتراك والمسيحيون فقد تخلوا عن الاقامة فيهــا . وكانت قلعتهــا[١١٠] مبنيــة من الاحجـــار ، لكنها انهارت وتقوضت . الا أن الباب الذى دخلت منــه القديســة العــذراء مريم وبصحبتها السيد المسيح وسيدنا يوسف حين هروبهم من أورسليم ، هذا الباب لازال سليما وقائما[١١١] .

ويعاود باسيل حديثه عن المعــالم الدينيــة فى القاهرة القديمة فيقـــول :

« أمضينا أربعة أيام فى القاهرة القديمة بصحبة البطريرك ، ومنهــا توجهنـــا نحــو ديــر القــديس أرسانيوس[١١٢] St. Arsène . والمسافة بين هــذا الديــر والقاهرة سبعة فرست[١١٣] Verstes . وقــد

---

(109) Basile Posniakoff, p. 18 .

(١١٠) المقصود هنــا قلعــة بابليون الرومانية . وعنها أنظــر .

E. Loukianoff, la Forteresse Romaine du Vieux - Caire, Dans B.I.E., le Caire, 1952, t. XXXIII, p. 285.

(111) Basile Posniakoff, p. 19.

(١١٢) يقع هذا الدير فى ضواحى المعادى جنوب القاهرة . أنظــر .

Basile Posniakoff, p. 18, n. 2.

وعن القديس ارسانيوس أنظر زكى شنودة : تاريخ الأقباط ، جـ ١ ، ص ٢٠٩ — ٢١٠ .

(١١٣) أى ٧٫٤٦٩ كم .

تولى القديس أرسين (١١٤) Arsène تربية ابنى الامبراطور ثيودوسيوس (٣٧٩ — ٣٩٥ م) وهما هونوريوس Honorius وأركاديوس Arcadius • ويقع دير أرسين على جبل حجرى شاهق الارتفاع ، حفرت فيه مغارات حيث كان يعيش النساك • والدير آية من آيات الجمال ، به صوامع للراهبان شاهقة الارتفاع وواسعة ، مبنية من الاحجار • والدير لا يقيم فيه أحد بسبب العرب(١١٥) » على حد زعمه •

وينتقل باسيل بعد ذلك الى الحديث عن رحلته الى جبل سيناء فيقول :

« أمضى البطريرك أسبوعا فى القاهرة ، وفى يوم السبت بعد عيد القديس ديمترى (١١٦) St. Dimitri رحلنا معا الى جبل سيناء • فاستأجرنا جمالا للوصول الى هناك ، ودفعنا لأصحابها قطعة من الذهب عن كل شخص • فحمل كل جمل رجلين ، وأخذ كل فرد معه غذاءه وماءه فى قرب مصنوعة من الجلد •

---

(١١٤) ولد فى روما سنة ٣٥٠ م واختاره الامبراطور ثيودوسيوس لتربية هونوريوس وأركاديوس • الا أنه ضاق من العيش فى البلاط الامبراطورى ، فانسحب للاقامة فى أحد أديرة مصر • وتعد اخلاقه مثالا يسير على منواله كافة الرهبان • وتوفى القديس أرسين عام ٤٤٥ م عن عمر يناهز الخامسة والتسعين • ويحتفلون بعيده كل عام فى التاسع عشر من شهر يوليو • انظر : Bouillet, p. 121 .

(115) Basile Posniakoff, p. 19.

(١١٦) يحتفلون بعيد القديس ديمترى فى السادس والعشرين من اكتوبر من كل عام • انظر : Basile Posniakoff, p. 20. n. 3.

كل هذا كان يزن اكثر من عشرة بـــود (١١٧) Poudes
كذلك حمـــل كل شخص قنطـــارا (١١٨) Kantar
من الخبز الجاف ، علما بأن القنطار يساوى ثلاثـــة
بـــود على حـــد قول باسـيل (١١٩) ٠

وللوصول الى جبل سيناء ، استغرقت الرحلة اثنى عشر يـــوما من الســـير على ظهور الجمال ٠ ومنذ تركنا القاهرة حتى وصلنـــا الى ســـيناء سرنا عبر صحـــراء خاويـــة لا وجـــه للمقارنة بينهـــا وبين صحراء روسيا ، اذ ليس بهـــا لا غابات ولا أعشاب ولا نبـــات ولا ماء ٠ فقـــد سرنا لمـــدة ثلاثة أيـــام دون أن نـــرى شـــيئا على اطلاق ما عـــدا رمالا واحجارا ٠ وفى اليـــــوم الرابع من رحيلنـــا لمحنـــا البحـــر الاحمـــر الذى عبره ســـيدنا موسى بصحبة ســـتمائة وســـتين الفـــا من اليهـــود (١٢٠) ، بينما غرق فرعون مصر بكل جنوده ٠ والملاحظ أن العرب يطعمون جمالهم بالفـــول الجـــاف

---

(١١٧) البـــود يـــزن ١٦٫٣٨ كجم ٠ أنظر :
Posniakoff, p. 20, n. 4.

(١١٨) القنطار يـــزن ٤٤٫٩٢٨ كجم ٠ أنظر
Posniakoff, p. 20, n. 5 .

(١١٩) هـــذا القول تقريبى وصحة ذلك انظر حاشية رقم ١١٨ ٠

(١٢٠) التوراة مليئة بتفاصيل يصعب تصديقها ٠ مثال ذلك ما جاء بهـــا من عـــدد الاسرائيليين الذين خرجوا من مصر يبلـــغ ستمائة ألف أصبحوا بعد أربعين سنة أربعين ألفا ٠ ولقد لفت العالم فلندرز بيترى النظر الى أن أرض جوشن بمصر التى قيل أن الاسرائيليين عاشوا بها لا تتحمل أكثر من ايواء اثنتى عشرة الف نسمة ٠ واستنتج من ذلك أن هجرة ستمائة الف رجل وعائلتهم وعتادهم واقعـــة لا يمكن قبولها منطقيا ٠ أنظـــر :
F. Petrie, Egypt And israel London, 1931 p. 41.

ولا يسقونهم الماء الا كل ثلاثة أيام » (١٢١) .

ثم خصص بوسنياكوف فصلا عنوانه « عبور الاسرائيليين » « Du Passage des Israélites » سرد فيه قصة عبور سيدنا موسى للبحر الاحمر ، وثورة الاسرائليين عليه ، ورغبتهم فى العودة الى مصر . ثم غرق فرعون وجنوده فى مياه البحر . وأشار بوسنياكوف الى قيامهم باقتفاء أثر سيدنا موسى واليهود . وأخيرا ، أشار الى وصولهم الى دير جبل سيناء (١٢٢) قائلا :

« وصلنا أخيرا الى دير جبل سيناء ، فاستقبلنا رئيس الاساقفية والاساقفة والقساوسة والرهبان استقبالا حافلا ودخلنا الكنيسة وكأننا دخلنا الجنة . اذ كرست لتجلى سيدنا يسوع المسيح. ثم شاهدنا رفات القديسة الشهيدة كاترين (١٢٣) ،

---

(121) Posniakoff, p. 20.
(122) Posniakoff, pp. 21 — 22.

(١٢٣) قيل أن كاترين فتاة من عائلة نبيلة ثرية ، كان عمرها ثمانى عشرة سنة فى عام ٣٠٥ م حينما تقدمت للقيصر مكسمينوس دايا (٣٠٥ — ٣١٣ م) ولامته على جرائمه . ثم لم تقف عند هذا الحد بل سعت الى اقناع بعض العلماء فاعتنقوا المسيحية . فما كان من الطاغية الا أن أمر بحرق اولئك العلماء . أما كاترين ، فقد أمر بتعذيبها ، فتحملت كل أنواع الآلام الى أن استشهدت بقطع رأسها وذلك فى الخامس والعشرين من نوفمبر سنة ٣٠٥م . ولما انتهى عصر اشهداء ، نقل الرهبان جسد الشهيدة الى سيناء فى الجبل الذى يحمل اسمها . وظل هناك حتى القرن الخامس حين عثر عليه ونقل الى الكنيسة التى بناها الامبراطور جستنيان . وكاترين معناها بالاغريقية (الطاهرة) . ومن أروع آثار دير القديسة كاترين ذلك التابوت الفضى الذى بعثت به روسيا الى الدير لحفظ رفات القديسة كاترين بداخله . وعليه شكل يمثل القديسة وقد طعم بالذهب والاحجار الكريمة . انظر : Bouillet, p. 357 . انظر أيضا : عزيز سوريال عطية : الفهارس التحليلية لمخطوطات طور سيناء العربية ، ج ١ ، لوحة ٤ ، ص ٣٢ ، جوزيف نسيم يوسف : سيناء كنوزها وآثارها التاريخية فى العصور الوسطى ، ص ١٤١ ، عبده مباشر : سيناء ، ص ١٥٣ — ١٥٥ .

ورأينـــا كنيسة « العليقة المشتعلة » (١٢٤) والتى اقيمت فى الموضع الذى كلم اللـــه فيه موسى ، وزونا رفـــات القديسين الذين استشهدوا فى ســــيناء والطور (١٢٥)

ويحوى دير سيناء (١٢٦) خمســا وعشرين كنيسة (١٢٧) . ويقع هـــذا الدير بين جبلين وبه ثلاثمائة صومعة كلهـــا مبنيـــة من الأحجار ، ويحيط بالديـــــر أيضـــا ســـور حجرى (١٢٨) . ويتصدر باب دخولـــــه

---

(١٢٤) انظـــر حاشية رقم ١٠ .

(١٢٥) عرفت أرض الطور منذ القـــدم باسم « ريثـــو » Raïthou هكذا وردت فى مصنفات الرحالة الروس وغيرهم . كذلك اطـــلق على سكان الطـــور اسم « شـــاسو » . أنظر :

Basile Posniakoff, P. 24, n. 1.

والطور فى اللغـــة يعنى الجبل الذى يكســـوه الشجر . أنظر ياقوت : معجم البـــلدان ، ج ٣ ، ص ٥٦ ، البغدادى : مراصد الاطلاع ، ج ٢ ، ص ٨٩٦ ، ابن سعيد المغربى : كتـــاب الجغرافيا ـــ تحقيـــــق اسماعيل العربى ـــ الجزائر ١٩٨٢ ، ص ١٥١ ، القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٣٠٧ و ٣٨٧ .

(١٢٦) يقع الدير على سفح قمـــة جبل طور سيناء ، على أحـــد فروع وادى الشيخ ، ويرتفع عن سطح البحـــر ٥٠١٢ قدمـــا . ويقـــال أن الديـــر يقع فى نفس المكـــان الذى كلم الله فيـــه موسى عليه السلام . وبنـــاء الدير اشبه بحصن من حصون العصور الوسطى ، فالسور الخارجى ســـور حصين ، حجارة اجزائـــه الســـفلى من الجرانيت ، وترجع الى أيام الحصن الذى أمـــر جستنيان بتشييده ليحتمى الرهبـــان بداخـــله ، لهـــذا أقيم الدير على نمط الحصون الحربية . أنظر فتحى رزق : رباعية ســـيناء ، ص ٢٨٦ .

(127) Basile Posniakoff, pp. 23 — 24 .

(١٢٨) للدير سور ضخم طولـــه ٨٥ مترا ، وعرضـــه ٧٥ مترا ، ومتوسط ارتفاعه يبلغ من ١٢ الى ١٥ مترا ، وسمك الحائط متران وربع . وقد بنيت داخل السور عـــدة كنائس صغيرة للعبـــادة ، وقـــد حدثت فيـــه ترميمات كثيرة على مـــدى العصور وعلى الاخص فى السور الشرقى =

مدفعان (١٢٩) ويقيم بدير جبل سيناء تسعون راهبا (١٣٠) . وقد قل عددهم بسبب اضطهاد العرب لهم (١٣١) . أما العرب (١٣٢) ، فيبلغ تعدادهم اربعمائة

=

المعرض للسيول . وعندما مر نابليون بونابرت بالدير وهو فى طريقه لغزو الشام ، أمر الجنرال كليبر بترميم أسواره الشرقية التى آلت للسقوط . أنظر ابراهيم أمين غالى : سيناء المصرية عبر التاريخ — القاهرة ١٩٧٦ — ص ١٢٦ ، فتحى رزق : رباعية سيناء — القاهرة ١٩٨٤ — ص ٢٨٦ .

(129) Basile Posniakoff, p. 24 .

(١٣٠) اختلف عدد رهبان سيناء ، سواء المقيمون منهم بالدير أو الموزعون على الكنائس الصغيرة المبعثرة فوق قمم الجبال اختلافا كبيرا باختلاف الازمنة . ففى بداية القرن الحادى عشر الميلادى (أوائل القرن الخامس الهجرى) كان عددهم حوالى ثلاثمائة . وفى بدايات القرن الرابع عشر (أوائل القرن الثامن الهجرى) وصل عددهم الى مائتين من الرهبان . ولكن عددهم تضاءل مع مضى الزمن بسبب تأسيس العديد من الاديرة فى المراكز المسيحية المعروفة ، مثل قبرص وكريت وأثينا ، مما كان له أكبر الاثر فى اجتذاب عدد من رهبان سيناء . يضاف الى ذلك أن الحماس الذى صاحب حركة الرهبنة والديرية فى بدايتها — كما هو معروف فى التاريخ الاوربى الوسيط — بدأ يخبو ويفتر ويتقلص مع الزمن . أنظر جوزيف نسيم يوسف : سيناء كنوزها وآثارها ، ص ١٣٣ .

(١٣١) عن أسباب قلة عدد رهبان سيناء أنظر حاشية رقم ١٣٠ .

(١٣٢) كانت الدولة النبطية التى أمنت الطريق عبر شبه الجزيرة قد زالت بعد أن استولى الرومان على البتراء فى عام ١٠٦ ، فأصبح أهل البدو من نهر الأردن الى البحر الاحمر لا وازع لهم يعيشون على الغزو والنهب . ووقعت الحوادث الدامية الواحدة تلو الاخرى ، لا سيما بعد جلاء الرومان عن البتراء فى عهد الامبراطور فالنس Valens فى النصف الثانى من القرن الرابع . ومنذ ذلك الحين ، فكر الرهبان فى انشاء دير يكون لهم حصنا يؤوى رجال الدين ويقيهم شر الغزوات . وتحققت هذه الفكرة ، فسافر وفد من الرهبان الى القسطنطينية والتمس من الامبراطور جستينيان بناء حصن مزدوج الاغراض اذ سيعمل على تأمين الطريق من العقبة الى مصر من ناحية ، ومن ناحية اخرى سيحمى

=

أسرة (١٣٣) ، يعيشون فى الصحراء المجاورة للديـــر .

=

الرهبـــان من شر الغزوات . فاقتنع جستنيان بالفكرة ، وأرسل المهندسين والبنائين ، وتم بنـــاء الديـــر فى عام ٥٤٥ م . على أن هـــذا الحصن لم يق الرهبان وزواره شرور الاعتداء ، لأن البدو كانوا يختبؤن فى المغاور والجبال ، وكلما وجدوا زائرا أو راهبا منفردا انقضوا عليه وقتلوه وسلبوه ماله . فلما بلغت هـــذه الاخبار الامبراطور البيزنطى ، أحضر من بـــلاد الفـــلاخ جهـــة البحر الاسود مئـــة رجل بعائلاتهم وأرسلهم الى سيناء . وكتب الى ثاودروس نائبـــه فى مصر فأرسل اليـــه أيضـــا مائـــة رجل بعائلاتهم وبنى لهم أماكن وراء الجبل الشرقى على نحو ٨ أميـــال من الدير ، وسكنوا فيها ، وأقاموا هنـــاك فى حراسة الدير وخدمة الرهبان . وأمر جستينيان أن يكونوا فى خدمة الدير وفى طاعة رهبانه هم وأولادهم .

بالدير وثيقة تعود الى سنة ٥٣٠ م قيل أنها الطلب الذى قدمه الرهبان الى جستنيان طالبين حمايتهم من اضطهاد العربان لهم جاء فيهـــا .

« نحن القسوس والرهبان القاطنين فى سيناء اننا لم نعـــد نستطيع احتمال اضطهاد العربان الذين كانوا يأتوننا من البحر الاحمر والحبشة ومن كل ناحيـــة ينهبوننا ويذبحوننا ويفعلون بنا كل الشرور التى يلهمهم بهـــا الشيطان ، وقـــد نصحنا الزوار الذين كانوا يأتون من كل الجهات لزيارة الاماكن المقدســـة أن نرسل وفـــدا الى الملك جستنيان فى القسطنطينية ليبنى لنـــا حصنا يقينـــا هجمات العرب ... » أنظر الوثيقـــة رقم ٦٩٢ ســيناء — عربى ، مكتوبة على ورق مقاس ٣٢×١٩ سم ، موضوعهـــا « حجـــة » أنظر جوزيف نسيم يوسف : سيناء ، ص ١٣١ ، ابراهيم أمين غالى : سيناء ، ص ١٢٢ — ١٢٣ .

(١٣٣) يبرز هؤلاء كعنصر منفصل، وينتمون الى قبيلة الجلية، وهم سلالة مائتى جندى جاء بهم الامبراطور جستنيان بعد بنـــاء الدير وذلك لحمـــاية رهبانه (أنظر حاشية رقم ١٣٢) . ثم ما لبثوا أن اختلطوا بالمصريين فأصبحوا مزيجـــا من الروم والعرب والمصريين . وكانـــوا يدينون بالمسيحية ، الا انهم اعتنقوا الاسلام فيما بعد ، وعاشوا عيشة البادية ، لكن العرب العريقين يترفعون عنهم ، فلا يتزاوجون معهم ، وعددهم الآن يقرب من ٨٠٠ شخص . ويذكر « دوما » Dumas أن آخـــر امرأة مسيحية منهم ماتت ســـنة ١٧٥٠ م . أنظر

J. Dumas, La Péninsule du Sinai, Le Caire, 1951, p. 17.

وفى صباح كل يوم ، يفـد الى الدير مائتان من العرب ليحصلوا على الاتـاوة المفروضـة على الرهبان وهى : دقيق القمـح ، وزيت ، وبصل [١٣٤] . واذا امتنـع الرهبـان عن اعطـائهم هـذه المـواد الغذائية ، يقوم العرب برجمهم بالحجارة من خارج أسوار الدير »[١٣٥]

ويذكـر بوسنياكوف أنـه رأى بعينيـه العنف الذى يعامل بـه العرب الرهبـان . وكيف أن هؤلاء الرهبـان يتحملونهم [١٣٦] . كذلك

---

(١٣٤) ذكر الرحالة الروسى باسيل جوجارا Basile Gogara الذى زار دير القديسة كاترين سنة ١٦٣٤م أن عدد رهبان الدير بلغ آنذاك ثلاثمائة راهبـا . وان رهبان الدير يقومون باطعام خمسمائة من العربان . وخـوفا منهم على حياتهم ، كان الرهبـان يضعون طعام العربان فى أجولة مصنوعة من الجـلد ثم ينزلونها من خلف أسوار الدير عن طريق جبال سميكة أنظر . Basile Gogara, Voyage au Sinaî Avec L'Adjonction de Fragme nts sur L'Egypte Et La Terre Sainte, St. Pétersbourg, 1850, 2e Partie, pp. 83 — 84 .

(١٣٥) Voyage Posniakoff, p. 24 . وقـد أورد ذلك أيضا الرحالة الروسى باسـيل جوجارا . أنظر Voyage Au Sinaî, p. 84.

(١٣٦) كانت المنتجات الزراعية فى طور سيناء — على قلتها — تثير الكثير من الخلافات بين الرهبان والعربان . ويبـدو أن شكاياتهم كانت تصل الى مصر بهذا الخصوص ، وان كان الديـر لم يحتفظ لنـا بصور منها . ففى منشور صادر عن ديوان الانشاء بتـاريخ ٣ رجب ٥٢٩ هـ (١٩ ابريل ١١٣٥ م) صدر أمر بمنع كل من يتعرض لاسقف الدير ورهبانه وما يختص بهم من قمـح وشعير وحبوب وكروم وما يعتصر منها (أنظر الوثيقة رقم ٨ بتـاريخ ٣ رجب ٥٢٩هـ/١٩ ابريل ١١٣٥ م) . وفى منشور آخر بتـاريخ ١٦ محرم سنة ٥٩٢ هـ (٢١ ديسمبر ١١٩٥ م) صدر الأمر « بأن لا يفسـح للعربان ولا لغيرهم من الموافقين والمخالفين لهم فى الاديان فى اهتضامهم » (انظر الوثيقة رقم ١١ سطر ٣٢ — ٣٣) . ويحدث أحيانا أن يطلب العربان مقاسمة الرهبان فى كرومهم وتخيلهم وغيرها من الزروع . ويخرج منشـور من الديوان بأن « لا يعرضوا فى كرومهم ونخيلهم وزروعهم باضرار ولا مقاسمة ولا احتجاز ، ولا اقتطاع شىء من ذلك بوجه من وجوه الاجبار . . . ولتكف عنهم أسباب المساءة العائدة بغيرهم » . للتفاصيل الدقيقة المطولة من واقع وثائق الديـر أنظـر جوزيف نسـيم يوسف : دراسـة فى وثائق العصرين الفاطمى والايـوبى ، ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

رأى فى هـذا الديـر أن الرهبان يخدمون الله باخـلاص وتفـان وخشـوع (١٣٧) .

ولاحظ بوسنياكوف أن فى وسط الدير يوجـد بئـر موسى حيث كان نبى اليهـود يسقى من مياهه ما غـره . وفى أعـلى هذا البئـر ينمـو ورد بلدى كان سـيدنا موسى وقـد زرعـه ولا يزال ينمـو باخضرار حتى لحظة رحـلة بوسنياكوف . على أيـة حال ، فبئـر موسى عميقـة جـدا وتوفـر المـاء اللازم للديـر . وفى مواجهـة الديـر ، على اليسـار ، تنهض كنيسـة باسـيل القيصرى Basile de Césarée وقـد حولهـا الاتراك الى مسجد (١٣٨) .

ويواصل بوسنياكوف سرد تفاصيل رحلتـه قائلا :

« بعد أن أمضينا أربعـة أيام فى الدير ، قمنـا مع البطريرك بتسـلق قمـة جبل سـيناء المقدس . ولم نتمكن من تحقيق غايتنـا الا فى المسـاء بسبب وعورة الطريق وتعرجه وأحجاره الضخمة . وعلى قمـة الجبل المقدس ، زرنا كنيسـة تجلى السيد المسيح التى أقيمت فى الموضع الذى كلم الله فيه موسى . ووجـدنا على قمة هذا الجبل أيضـا مسجدا (١٣٩) .

---

(137) Basile Posniakoff, p. 24 .

(138) Basile Posniakoff, p. 25

وعن باسيل القيصرى أنظر حبيب سعيد : تاريخ المسيحية — القاهرة ١٩٧٨ — جـ ١ ، ص ١٦٤ — ١٦٥ .

(١٣٩) للتفاصيل الدقيقة عن هذا المسجد أنظر السيد عبد العزيز سالم : الآثار الاسلامية فى دير سانت كاترين بطور سيناء — مقال بمجلة العلوم بيروت — العدد الأول يناير ١٩٦٥ ، ص ٣ وما بعدها ، جوزيف نسيم يوسف سـيناء كنوزها وآثارها التاريخية ، ص ١٣٨ — ١٣٩ .

وعندما نزلنـــا من الجبل ، أمضينا ليـــلة فى الدير الذى صادف طريقنا • وبعـــد أن أمضينا ثلاثـــة أيـــام فى ديـــر سيناء ، تسلقنا جبل الشهيدة القديسة كاترين ، ثم وصلنـــا الى حديقـــة بهـــا كنيستان ، الأولى مكرسة للشهداء الاربعين ، والثانية للقديس أنطوان الكبير (١٤٠) Antoine le Grand • أما الحديقة فهى جميلة وشاســـعة تحـــوى كميات هائـــلة من الكروم وأشـــجار الكمثرى والتفـــاح • ولم يصادفنا فى بلـــد ما كمثرى فى ضخامة كمثرى هـــذه الحديقة ولا فى لـــذة طعمها • وتقـــع الحديقة بين جبل ســـيناء وجبـــل القديســـة الشـــهيدة كاترين (١٤١) •

وفى اليوم التالى ، وفى ساعة مبكرة ، قبل بزوغ الفجـــر بأربع ساعات ، شرعنا فى تســـلق جبل القديسة الشهيدة كاترين • واستخدمنا المصابيح لتحقيق غايتنا • على أيـــة حال ، كان الصعود شاقا وصعبا بسبب الجبال الحجرية • ولم نوفق فى الوصول الى قمـــة الجبـــــل الا ظهرا •

والمسافة بين جبل سيناء وجبل كاترين خمســـــة فرست (١٤٢) Verstes • وفى قمة الجبل شاهدنا رفات القديســـة الشهيدة كاترين (١٤٣) بعد ذلك نزلنـــا ودخلنا

---

(١٤٠) عنه أنظر حاشية رقم ٦٤ •

(141) Basile Posniakoff, pp. 25 — 26 .

(١٤٢) اى ٥ر٣٣٥ كم •

(١٤٣) عن ذلك أنظر حاشية رقم ١٢٣ •

حديقة أخرى فى الدير حيث كنيسة الرسولين بطرس وبولس وصوامع مخصصة لسكنى الرهبان • ثم عدنا ثانية الى دير سيناء كان ذلك يوم الاحتفال بعيد استشهاد القديسة كاترين (١٤٤) •

وفى اليوم التالى ، توجهنا الى المكان الذى صام وعاش فيه يوحنا كليماك (١٤٥) Jean Climaque وفى طريقنا رأينا سجن جبل سيناء الذى زاره يوحنا كليماك • ثم انتقلنا الى مسكن ذلك الناسك وهو مقام مظلم صغير تحت الأرض • والمسافة من الدير الى مكان اقامة الناسك أربعة فرست (١٤٦) • أما دير سيناء ، فكان واقعا بين جبلين حجريين ولم نتمكن من رؤيته من أى جنب (١٤٧) ، حتى اذا كنا على مسافة نصف فرست (١٤٨) •

وبعون الله ، امتطينا ثانيا صهوة جمالنا وتوجهنا بصحبة البطريرك نحو الطور Raithou

(١٤٤) أى فى الخامس والعشرين من نوفمبر •

(١٤٥) يوحنا كليماك من اوائل علماء اللاهوت . ولد فى فلسطين خوالى سنة ٥٢٥ م وتوفى سنة ٦٠٥ م . امضى حياة متعبدا فى عزلة انفرادية فى صحراء جبل سيناء . استمر على حاله هذا ما يقرب من ستين سنة الف خلالها مصنفات لاهوتية على درجة كبيرة من الاهمية . أهم أعماله « Climax » أى « درج السماء » لهذا لقب « كليماك » . وقد ترجم ارنول دانديللى Arnauld D'Andilly مصنفه هذا الى الفرنسية وذلك فى باريس سنة ١٦٨٨ انظر : Bouillet, p. 340.

(١٤٦) أى ٢٦٨ر٤ كم •

(147) Basile Posniakoff, p. 27 .

(١٤٨) أى ما يقرب من ٥٣٣ م •

فوصلنا اليـه بعد ثـلاثة أيام • وكان الطريق شـاقا عبر جبـال حجرية • ومن الاستحالة الوصول اليـه الا على ظهر جمل • وصادفنا فى هـذا الطريق العـديد من المنـابع المائيـة • اخيرا وصـلنا الى الطور حيـث لا يوجد يونانيون ، بل يسكنها شوام يدينون بالمسيحية وارثوذكس • كذلك يوجـد خليج تمخر عبـابه السفن الهندية • والمسـافة بحرا من الطور الى بـلاد الهنـد تستغرق ثلاثة أشـهر • والطور مدينـة صغيرة مبنيـة من الحجارة ، لا يسكنها الا المسيحيون • أما الأتراك ، فلا يوجـد منهـم الا سـنجق[(١٤٩)] Sandjak وعشـرة جنود من الانكشارية[(١٥٠)] •

وهناك صناعة للسفن على شواطىء البحر الاحمر • والجدير بالملاحظة أن الصناع لا يستخدمون المسـامير الحديدية فى تجميع وصناعة السفن ، بل يستعيضون عنها بحبـال اشجار النخيـل • ويتحاشى صـناع السـفن استخدام المسـامير الحديديـة لا عتقادهم أن البحـر الاحمر ملىء بالمغناطيس والجبال الممغنطة التى تجذب حديد السفن ومساميرها فتتفكك وتغرق •

ورأينـا فى الطور أيضـا ثورين أسـودين جلبهما

---

(١٤٩) يلاحظ انـه كان يتولى شئون الحكم والادارة بالطور فى العهد العثمانى اثنـان ، أحدهما يطـلق عليه « الحكم الشرعى ببندر الطـور » والمقصود بـه الحاكم المدنى ، والثانى « الأغـا ببندر الطور » وهو المسئول عن حفظ الأمن والنظـام • أنظر الوثيقة رقم ٣٥٧ بمكتبة ديـر سـيناء ، وهى عبارة عن فرمان يرجع الى العهـد العثمانى — مقاس ٤٨ x ٢٢ سم — بتاريخ أول رمضان ٩٩١هـ (١٨ سبتمبر ١٥٨٣م) •

(150) Basile Posniakoff, pp. 27 — 28.

تجار من الهنـــد على مراكب عن طريق البحر الاحمر • ولضخامتها يستطيع رجل أن يجلس بين قرنيهما[١٥١] •

ويوجد فى الطور كنيسة لتجلى القديســة العذراء تقــع فى ســور الدير التابع لجبل سيناء المقدس • ثم توجهنا بعد ذلك الى الموضع الذى غرس فيه سيدنا موسى سبعين من اشـــجار النخيل حيث كان الله قــد أمــر بانســياب اثنتى عشرة عينا من المــاء تخترق الجبال الحجرية تكريما لسيدنا موسى عليه السلام • رأينــا فى هذا الموضع شجر النخيل السبعين والعيون الاثنتى عشرة التى تنســاب بلا توقف حتى وقتنــا هذا • والغريب أن ميــاه هــذه العيون ساخنة ، الا أن العين المسماه مــارة Merra شديدة البرودة ، مرة المذاق • ومن ســيقان أشجارر النخيل التى كان سيدنا موسى قد غرسها ، تكونت حديقة كبيرة تتبع جبل سيناء المقدس •

والمسافة بين الطور وكل من اشجار النخيل وعيون موسى اثنتان فرست [١٥٢] • وبين الطور ودير القديس يوحنا فى الطور Jean de Raïthou ثلاثة فرست[١٥٣] وقد قلب الاتراك هذا الديــر راســا على عقب ، فأتــوا عليــه وحولــوه انقاضا •

ومن الطور توجهنا الى القاهرة فأمضينا عشرة أيام لنصل اليها • وفى الطريق اليها عانينا الأمرين من قطاع

(151) Basile Posniakkoff, p. 28 .
ولاشك ان المبالغة واضحة .

(١٥٢) أى ٢ر١٣٤ كم •

(١٥٣) أى ٣ر٢٠١ كم •

الطرق من أهل الصحراء (١٥٤) . اذ خططوا للانقضاض علينا فى معسكرنا اثنـــاء الليل . الا أن الله لم يأذن لهم بتنفيـــذ عدوانهم ، فقـــد بث الرعب فى قلوبهم ؛ فظلوا بجوارنا دون ان يجرؤا على مهاجمتنا . وفى اليـــوم التـــالى ، ابتعدنا عنهم دون أن يصيبنا أذى » (١٥٥) .

هكذا ، تعد رحلة « حج التاجر باسيل بوسنياكوف » أهم رحلات الرحالة الروس على الاطلاق ، رغم ما بهـــا من قصص اختلقها بطريرك الروم الارثوذكسى ودســـــها باســـيل فى نص رحلتـــه دســـا ، هادفا من ذلك — كما ســـبق أن أوضحنا — اظهار عداء اليهود لمسيحيى مصر ؛ وعداء الروم الارثوذكس لاقباطها وغيرهم من اتبـــــاع مذهب الطبيعة الواحدة . ومع ذلك ، فقـــد تميزت رحلة حـــج باســـيل بالاســـهاب والدقـــة الى حد كبير ، ممـــا شـــجع الرحالة الروسى تريفون على الانقضـــاض عليها انقضاضا ، ونسخها نسخا يكاد يكون حرفيا .

---

(١٥٤) نظرا لبعد الدير عن المناطق الاهـــــلة ، وصعوبة الطـــــرق والمواصلات اليـــه ، وما كان يتعرض له المسافرون الى طور سيناء لزيارة آثارها المقدسة من متاعب وصعاب ومن أخطار وأهوال ، ومنها هجـــــوم اللصوص وقطاع الطرق عليهم وسلبهم ما معهم — فقد طلب المسئولون بالدير من الحكام بمصر الاذن باصدار الأمر بعدم التعرض لمن يقـــوم بزيارة الدير ، وتأمين الطريق المؤدى اليـــه . ففى وثيقة بتاريخ ١٦ محرم ٥٩٢هـ (٢١ ديسمبر سنة ١١٩٥ م) صدر الأمر بمنع من « يتطرق لاخافة سبيلهم المسلوك لزيارتهم ... ولا يعارض زوارهم من البلاد الشامية بوجه من وجوه اضرار أو أذيـــة » . أنظر جوزيف نسيم يوسف : دراسة فى وثائق العصرين الفاطمى والايوبى ، ص ٢٨٥ : نقلا عن الوثيقة رقم ١١ سطر ٣١ و ٣٥ .

(155) Basile Posniakoff, p. 28 .

ـ رحلة تريفون كوروبئينيكوف فى سنتى ١٥٨٢ و ١٥٩٣م :

ولقد حظيت رحلة تريفون المتعلقة بزيارة الاماكن المقدسة فى الشرق وعنوانها « رحلة حج تريفون كوروبيئينيكوف [١٥٦] Pérégrinations de Triphon Korobeînikoff بشهرة بالغة فى روسيا • اذ لاقت شعبية لم تحظ بهـا غيرها من اسـفار الرحالة • وقـد ظهر نص هـذه الرحلة لأول مرة سنة ١٦٠٢ م • فغطت أحداثها على ما سبقها من رحلات • فكثر نسخ مخطوطها حتى وصل عدد مخطوطات الرحلة الى مائتين ، وأكثر من أربعين نسـخة مطبوعة [١٥٧] •

وعلى هذا الأساس ، أصـبح نص الرحـلة بمنزلة نص مقدس وتسربت احداثها الى « سـير القديسين » ، بل أصبحت فى عـداد الأغـانى الكنسية أو الكتابات الأخرى ذات الطابع الدينى •

ظلت هـذه الرحلة على حالها من الشهرة مـدة تزيـد على قرنين من الزمان • الا أنهـا فقـدت شهرتها وأهميتها عندما اكتشف مخطوط « رحلة حج التاجر باسـيل بوسنياكوف » وذلك سنة ١٨٨٤ م • واتضح أن تريفون نقـل نقلا حرفيـا عن باسـيل بوسنياكوف كما سـبق أن ذكـرنا [١٥٨] •

---

(156) Pérégrination du secrétairedu Palais Triphon korobeî-inkoff. Compte — Rendu De Triphon Korobeînikoff, concernant La distribution des Aumones du Tzar, Saint - Pétersbourg, 1888 ; Oleg, Tripon Korobeînikoff, 1582, 1593, I.F.A.O., 1972 .

(157) Triphon Korobeînikoff, 1582, 1593, p. 29 .

(١٥٨) قـارن Posniakoff, p. 13. مـع Korobeînikoff, p. 34. ;
Posniakoff, pp. 14 — 17 . مـع تلخيص Korobeînikoff, p. 34. ;
Posniakoff, pp. 18 — 26 . مـع Korobeînikoff, pp. 34 — 42 . ;
Posniakoff, pp. 27 — 28 . مـع Korobeînikoff, pp. 43 —45 . ;

على أيـــة حـــال ، فى سنة ١٥٨٢ م أوفـــــــد التـــزار Tzar، ايفان فاسيليفتش Ivan Vassiliévitch الشهير بايفان الرهيب(١٥٩) أوفد ايفـــــان متفيفتش ميشنين Ivan Matvéiévitch Michénine الى القسطنطينية والى جبل آثوس(١٦٠) حاملا صدقات الامبراطور حتى تقـــام القدسات لراحة نفس ابنة ايفان نوفتش le Tzavévitch Ivan Ivanovitch • وكان تريفـــون وشخص آخـــــــر يدعى جـــورج جريكوف Georges Grékoff من بين اعضـــاء هـــذه السفارة (١٦١) •

وفى العشرين من نوفمبر سنة ١٥٨٢ ، توجهت الســـــــفارة الى القسطنطينية ، وظلت سبعة أشهر • ثم بعد رحـــلة قصيرة الى جبـــل آثوس عادت السفارة ثانية الى موسكو حاملة معهـــا كثير من رســـائل الشكر موجهة الى التزار ، من بينها رســـالة من بطريرك الاســـكندرية ســـلفستر Sylvestre . ويلاحظ أن هـــذه الرسالة غير مؤرخـــة وليس بهـــا أيـــة اشـــارة الى مكان ارسالها أو مكان نسخها • لـــذا ، لـــم نتمكن من تحديد مكان التقاء أعضاء الســـفارة ببطريرك الاسكندرية •

الا انه ورد فى خطـــاب أرسله البطريرك سلفستر الى تـــزار الروس الآتى :

« بطررك القسطنطينية وشحصى(١٦٢) ومبعوثيك تلقينا بفرحة(١٦٣) بالغـــة صدقاتك »

---

(١٥٩) عنـــه أنظر حاشية رقم ٧٨ •

(١٦٠) كان جبل آثوس بلا منازع الجبل المقدس ، وهو عبارة عن شبه جزيرة ناتئة داخل البحر الايجى بالقرب من سالونيك . وكان بـــه جماعة من الناسكين منـــذ القرن التاسع الميلادى . للتفاصيل انظر ج.م. هسى : العـــالم البيزنطى — ترجمة رأفت عبد الحميد — القاهرة ١٩٧٧ ، ص ٢٠١ — ٢٠٢ .

(161) Triphon Korobeinikoff, p. 30.

(١٦٢) أى سلفستر بطريرك الاسكندرية .

(١٦٣) المقصود هنـــا كل من تريفون كوروبئينيكوف وجورج جريكوف وايفـــان متفيفتش ميشنين .

استنادا الى هذا النص نستخلص أن الصدقات سلمت الى بطريرك الاسكندرية سلفستر فى القسطنطينية • لذا ، كان من غير المفيد لاعضاء السفارة القيام برحلة الى وادى النيل • وعلى هذا الأساس، فمن المشكوك فيه أن تريفون قام برحلة الى مصر وأقام فيها •

والجدير بالذكر أنه فى الثامن والعشرين من فبراير سنة ١٥٨٤م • عاد أعضاء السفارة الثلاثة — ميشنين وجريكوف وتريفون — ثانية االى موسكو • وفى سنتى ١٥٨٨ و ١٥٨٩ م شغل تريفون وظيفة سكرتير القصر • أما فى سنة ١٥٩٣، فقد سافر ثانية الى خارج بلاده بصحبة سكرتير آخر للقصر يدعى ميشيل اوجركوف Michel Ogarkoff لتوزيع الصدقات التى أرسلها التزار فيودور ايفانوفتش (١٥٨٤ — ١٥٩٨ م) Fédor Ivanovitch، واقامة القداسات لصحة الاميرة الحديثة الولادة ثيودوسيه (١٦٤) Théodosie •

وعلى هذا ، غادرت السفارة الجديدة موسكو فى التاسع عشر من ينـاير سنة ١٥٩٣ م ، حاملة معها صدقات هائلة قوامها خمسة الآف وخمسمائة واربعة وستون قطعة ذهبية وكميات هائلة من الفراء الثمين • وأصدرت الأوامر الى تريفون بتوزيع هذه الصدقات فى القسطنطينية وانطاكية والقدس والاسكندرية وجبل سيناء •

وفى ابريل سنة ١٥٩٣ م ، وصلت السفارة الى اقسطنطينية وكالمرة السابقة سلمت الصدقات المخصصة للكنائس المصرية التابعة للروم ارثوذكس الى بطريرك الاسكندرية ملتيوس Mélétios واقتصدت بذلك مصاريف الرحلة الى مصر • ثم توجه تريفون ورفيقه اوجركوف الى القدس • وفى العشرين من فبراير سنة ١٥٩٤ م التقيا بملتيوس وسلماه اربعمائة وثلاثين قطعة ذهبية وأربعين قطعة فراء مخصصة

(164) Triphon Korobeinikoff, p. 31 .

لأسقف سيناء المدعو لوران Laurent • وهكذا ، تجنب سفيرا التزار متاعب رحلة الى سيناء ، ثم عادا ثانية الى روسيا دون أن تطأ اقدامهما أرض مصر (١٦٥) •

نستخلص مما سبق أنه فى سنة ١٥٨٢ م لم يذهب تريفون أبعد من القسطنطينية • أما فى سنتى ١٥٩٣ و ١٥٩٤م ، فقد قام برحلة ثانية الى القسطنطينية ذهب بعدها الى القدس حيث أتم المهمة المسندة اليه على أكمل وجه ، وبعدها وجد انه لا داعى اطلاقا أن يقوم برحلة الى مصر ، فلم يزرها بل نقل فى منتصف رحلته ما اورده عنها التاجر الروسى باسيل بوسنياكوف •

---

(165) Triphon Korobeînikoff, pp. 31 — 32 .

الخاتمـــة :

هكـــذا أظهرنا من خـــلال هذا البحث المتواضع والجديد ، ما ورد عن مصر فى كتابات الحجاج الروس • واستخلصنا أن مصنفات حجاج القـــرن الخامس عشر الميلادى لم يرد فيها الا اشـــارات ضـــئيلة عن مصر • اذ اهتمت بذكـــر المســـافات بين مدنهـــا • ومع ذلك ، يمكن القول أن هؤلاء الحجاج الأوائل تركوا ما يسمى « بخط السير » لخلفائهم من حجاج القرن الســـادس عشر • وكان أبـــرز هؤلاء على الاطلاق — كما أوضحنا — لتاجر الروسى باســـيل بوسنياكوف ، الذى أبـــرز فى مصنف رحلته العـــلاقات العدائيـــة بين اليهود والمسيحيين وذلك فى عصر السلطان طومان بـــاى ، فابتـــدع قصة الطبيب اليهودى الـــذى حاول القضاء على المسيحية ومسيحيى مصر • ولم يفقـــه ذكر تحريـــم امبراطور الروس الاتجـــار مع اليهود ، ومنعهم من دخـــول بلاده •

على أيـــة حال ، يؤخـــذ على بوسنياكوف كرهه ليس فقط لليهود والمسلمين بل أيضا لم يفلت من كرهـــه هذا أقبـــاط مصر المونوفيزيتيون المخالفون لـــه فى المذهب • وهـــذه طبيعة مؤرخى العصر الوسيط ، اذ يحقدون على مخالفيهم فى العقيـــدة أو المذهب ، ويصفونهم بالكفـــرة والهراطقة •

أمـــا بخصـــوص زيارتـــه لمصر ، فقـــد اهتم اهتماما بالغـــا بوصف تفاصيل زيارتـــه لشـــبه جزيـــرة طـــور ســـيناء • فقـــد كان الحجاج المسيحيون من مختلف بلـــدان العـــالم يتوافدون على ديـــر ســـيناء وهم فى طريقهم الى كنيسة القيامة فى القدس • ويرجع ذلك الى أن هـــذا الديـــر يعـــد من أقـــدم أديـــرة العالم ، ومن اكثرهـــا شـــهرة • فهـــو من الآثـــار الخـــالدة للامبراطور جستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥ م) ، ويعتبـــر آيـــة من آيـــات الفـــن والمعمار البيزنطى • لذلك

أصبح مزارر للحجـاج والسياح من كافـة ربوع العـالم على مـر العصور حتى يومنـا هـذا • اضافة الى ذلك ، فان شـبه جزيـرة طور سيناء كانت منذ أوائل العصر الوسيط ملجأ للزهاد والعباد والمتنسكين الذين يتبعون طائفـة الروم الأرثوذكس ، مما جعـل أباطـرة الروس يحرصون على رعايتهم ، وارسـال الأموال والكسـاء اليهم عن طريق مبعوثيهم من الحجاج والرحالة الروس • وكان من بين هؤلاء التـاجر باسيل بوسنياكوف وتريفون كوروبثينيكوف •

ختـام القـول ، يعد هذا البحث رسـالة موجهة الى علمـاء الآثـار ، للتنقيب فى ضوء المعلومات الواردة فيـه عن بعض الكنائس والاديرة التى لازالت مطمورة فى باطن الارض • والعمل على اكتشافها لتـرى النـور ثانية ، فيضيفون بعملهم هـذا كما أثـريا لا بأس بـه الى الآثار المسيحية المنتشرة فى ربوع مصرنا الحبيبة •

واللـه ولـى التوفيـق

فايـز نجيب اسـكندر

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد

كلية الآداب ـــ جامعة بنهـا

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

القاهرة فى ١١ نوفمبر ١٩٨٨

محتويات الكتاب *

— مقدمة	٣
— الحج الى مصر	٤
— أسباب اهتمام أباطرة الروس بمصر	٥
— أحوال مصر فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . . .	١٠
— الحجاج الروس فى القرن الخامس عشر	١٩
— رحلة جريثينيوس سنة ١٤٠٠ م	١٩
— رحلة التاجر باسيل فى سنتى ١٤٦٥ — ١٤٦٦م . . .	٢١
— الحجاج الروس فى القرن السادس عشر	٢٨
— رحلة جريجوار رئيس الرهبان سنة ١٥٤٧م	٢٨
— رحلة الراهب سوفرونيوس سنة ١٥٤٧م	٣٠
— رحلة التاجر باسيل بوسنياكوف سنة ١٥٥٨م . . .	٣٠
— رحلة تريفون كوروبئينيكوف فى سنتى ١٥٨٢م و ١٥٩٣م .	٥٥
— الخاتمة	٥٩

---

* اختصارا لصفحات البحث لنشره فى المجلة المصرية للدراسات التاريخية ، اكتفينا بذكر المصادر والمراجع فى الحواشى ، ولم نخصص لها قسما قائما بذاته فى نهاية البحث .

مطبعة الجبلاوى

رقم الايداع بدار الكتب ٨٤٠٠ / ١٩٨٨